جامعة المنصورة
كليـة الآداب

الفكر الثوري عند علماء الغرب الإسلامي وموقف السلطة الحاكمة ابن بَرَّجَان (ت٥٣٦هـ/١١٤١م) والقاضي عياض(ت ٥٤٤هـ /١١٤٩م)

(دراسة مقارنة)

إعـــداد

د. حسام محمود المحلاوى

أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية المساعد

كلية الآداب – جامعة دمياط

مجـلة كلـية الآداب – جامعـة المنصـورة
العدد السابع والسبعون – أغسطس ٢٠٢٥

الفكر الثوري عند علماء الغرب الإسلامي وموقف السلطة الحاكمة ابن بَرَّجَان (ت٥٣٦هـ/١١٤١م) والقاضي عياض(ت ٥٤٤هـ /١١٤٩م) (دراسة مقارنة)

د. حسام محمود المحلاوي

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية المساعد

كلية الآداب – جامعة دمياط

ملخص البحث

تقوم فكرة البحث على عقد مقارنة بين حركتين ثوريتين قام بهما عالمان: الأولي قام بها العالم ابن بَرَّجَان، الذي قاد فكرة الثورة ضد السلطة المرابطية، وكيف تعاملت السلطة المرابطية مع هذه الحركة ، أما الحركة الثانية فكانت حركة القاضي عياض وتعامل دولة الموحدين معها.

وتكمن أوجه المقارنة هنا في: النشأة والتكوين الفكري عند كل من العالمين، وبيان ما إذا كان للبيئة المكانية والفترة الزمنية والتكوين الفكري- من الناحية العلمية- أثر بشكل مباشر في تشكيل الفكر الثوري وفكرة التغيير عند كل منهما أم أن ذلك كان أمرًا فرضته الظروف؟ ويتجلى وجه المقارنة الثاني هنا في المناخ السياسي لقيام الحركتين؛ إذ قامت الحركة الأولى وهي حركة ابن بَرَّجَان ضد المرابطين وقت زوال دولتهم من لضعف قد أحل بهم ، وظهور دعوة جديدة لزوال دولتهم تزامنًا مع المواجهة العسكرية مع الدعوة الموحدية التي هدفت لذلك. أما الحركة الثورية الثانية بقيادة القاضي عياض فكانت مع قيام دولة الموحدين ورفضه بيعتهم ثم الموافقة بالبيعة ثم إعلان الثورة ، والتساؤل هنا أكانت الظروف متشابهة بين الحركتين أم اختلفت مع قيام دولة وسقوط أخرى؟

الكلمات المفتاحية : *ابن بَرَّجَان ؛ القاضي عياض ؛ المرابطون ؛ الموحدون ؛ ثورة المريدين.*

Abstract

The research concept is based on a comparison between two revolutionary movements led by two scholars. The first was the scholar Ibn Burjan, who led the revolution against the Almoravid dynasty, and how the Almoravid dynasty dealt with this movement. The second movement was the movement of Qadi Ayyad and the Almohad dynasty's response to it. The points of comparison here lie in the origins and intellectual formation of each of the two scholars. Did the spatial environment, the time period, and the intellectual formation, from a scientific perspective, directly influence the formation of revolutionary thought and the idea of change in each of them, or was this dictated by circumstances? The second point of comparison here is evident in the political climate of the two movements. The first movement, the movement of Ibn Burjan, was against the Almoravids at a time when their dynasty was waning due to their weakness, and a new call for their demise, in addition to the military confrontation with this Almohad call, which aimed to destroy their dynasty. The second revolutionary movement, led by Qadi Ayyad, coincided with the rise of the Almohad dynasty, and his refusal to pledge allegiance to them, followed by his acceptance of the pledge and the declaration of revolution. Were the circumstances similar between the two movements, or did they differ between the rise of one dynasty and the fall of another

مقدمـــــة

ترصد هذه الدراسة ظاهرة تخص العلماء، وهي علاقتهم بالسلطة الحاكمة في دولتين من أهم الدول الحاكمة في الغرب الإسلامي وأعظمها، أولاهما الدولة المرابطية التي قامت في البداية كحركة دينية انطلقت على يد رجل دين هو عبد الله بن يسين، الذي تبنى فكرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مجتمع من المجتمعات التي عجت بالفساد، فسيره الله سبحانه وتعالى لهذه المنطقة، يجدد دينها ويوجهها للطريق القويم، فقامت حركته التي سُميَّت باسم المرابطين أو الملثمين.

وانتهت هذه الحركة بقيام دولة عريقة اهتمت بالعلماء وأنزلتهم مكانة مرموقة، وقرَّبهم حكامها منهم، فقرَّب الأمير يوسف بن تاشفين (٤٥٣-٥٠٠هـ/ ١٠٦١-١١٠٦م) مؤسس دولتهم، العلماء منه، وأنزلهم مكانة مرموقة، وكان في مجلسه عددٌ من العلماء هم أهل الحل والعقد يسير في الحكم برأيهم، فيما يعرف بنظام الشورى، وسار ابنه عليَ بن يوسف بن تاشفين(٥٠٠ – ٥٣٧هـ/١١٠٧ – ١١٤٢م) على النهج نفسه لفترة، لكن تبدل الحال في وقت ضعفت فيه الدولة، وفقدت سطلتها المركزية القبض بزمام الأمور في بلاد الأندلس، علاوة على وشاية فقهاء المالكية بكثير من العلماء، فبدأت الدولة تتخذ موقفًا عدائيًا من بعض العلماء، أو من بعض مؤلفاتهم، فهبت لحرقها كما فعلت بكتب الإمام أبي حامد الغزالي بعد وشاية فقهاء المالكية، وبدأت تتخذ موقفًا عدائيًا من البعض الآخر، وبخاصة الذين خافت من قيامهم بحركات معارضة ضدها، أو الذين نهجوا بالفعل هذا النهج.

وكان من هؤلاء العلماء عددٌ من رموز المتصوفة في بلاد الأندلس، على رأسهم العالم أبو الحكم بن بَرَّجَان(ت ٥٣٦هـ/١١٤١م) الصوفي الزاهد الذي انضم لعدد من رموز الصوفية وعملوا على التدبير للقيام بثورة في بلاد الأندلس تهدف لتغيير نظام الحكم المرابطي أو على الأقل النيل منه؛ لأسباب بعضها يتعلق بالدولة المرابطية ذاتها، وبعضها يتعلق ببلاد الأندلس وخصوصيتها، وأخرى تتعلق بهؤلاء العلماء أنفسهم، كما سيتضح في صفحات البحث.

أما الدولة الثانية فعلى الرغم من قيامها هي الأخرى على يد شخصية دينية – داعية كذلك للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو محمد بن تومرت الملقب بالمهدي– فإن ثمة عددًا من التحفظات على هذه النقطة، فرجل الدين الذي كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كان يفعل ذلك كله بخريطة زمنية، كان قد حددها للتخطيط لقيام دولة تحكم المغرب الإسلامي، فكان مع دعوته الدينية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يطلب من الناس التمرد والثورة على المرابطين حكام المغرب والأندلس في تلك الفترة .

علاوة على أنها اتخذت موقفًا من العلماء، فقد كفرت كل مغاير لها في الاعتقاد وأحلت دمه فكانت دموية في فرض فكرتها، كما أنها كانت من وجهة نظر بعض العلماء دولة لا تستند إلى شرعية، كونها دولة متغلبة من الناحية السياسية، مغلوطة الأفكار والمعتقدات من الناحية الدينية، فهب بعضهم

للوقوف في وجهها والتحريض ضدها، ومنهم القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي (ت ٥٤٤هـ/١١٤٩م)، الذي قاد ثورة عارمة ضدهم في مدينته ومسقط رأسه سبتة.

وفكرة البحث تقوم على عقد مقارنة بين الموقفين: الأول موقف العالم ابن بَرَّجَان من السلطة المرابطية وفكرة الثورة ضدها، وتعامل السلطة المرابطية معه، والثاني موقف القاضي عياض من دولة الموحدين وتعاملهم معه . ويكمن وجه المقارنة الأول في النشأة والتكوين الفكري عند كل من العالمين للإجابة عن تساؤل مهم فحواه أكان للبيئة المكانية والنشأة والتكوين الفكري أثر مباشر في تشكيل الفكر الثوري وفكرة التغيير عندهما؟ أم أن ذلك كان أمرًا فرضته الظروف؟ ويتجلى وجه المقارنة الثاني في المناخ السياسي لقيام الحركتين؛ إذ قامت الحركة الأولى ضد المرابطين وقت زوال دولتهم لضعف قد أحل بهم، وظهور دعوة جديدة لزوال دولتهم وهي الدعوة الموحدية، وما دار من مواجهات عسكرية بينهما، في حين قامت الحركة الثورية الثانية بقيادة القاضي عياض مع قيام دولة الموحدين ورفضه بيعتهم في البداية، ثم الموافقة بالبيعة، ثم إعلان الثورة وخلع البيعة ، والتساؤل هنا أكانت الظروف متشابهة بين الحركتين أم اختلفت مع سقوط دولة وقيام أخرى؟

ويأتي وجه المقارنة الثالث في أحداث الحركة نفسها، من بيان أسبابها وقناعات كل عالم من العالمين بمبررات القيام بها، ودوره فيها. أما وجه المقارنة الرابع فيرصد تعامل كل من الدولتين مع الحركة الثورية، وكيف انتهت؟ ورصد آلية الدولة في تعاملها مع الحركات المغايرة لها، والثائرة ضدها، وجدوى التصدي لهذه الحركات بالفكر والإقناع، أو باستخدام القوة للتخلص من أصحابها؟

أما عن الدراسات السابقة التي انطلقت منها الدراسة فمنها :

– الدراسة التي أعدها الأستاذ الدكتور محمد زنير بعنوان" المحيط التاريخي لابن بَرَّجَان" ، بحث منشور في مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة القاضي عياض ، المغرب ، العدد ١٢، ١٩٩٣م ، وتناول فيها الباحث فكر ابن بَرَّجَان وميله للتصوف ، والمحيط التاريخي له بوصفه متصوفًا، وملامح المجتمع الأندلسي ، والبيئة الأندلسية وتأثيرها في نشأة فكر المتصوفة وانتشاره. وكما هو واضح فهذه الدراسة تعد تمهيدًا ومدخلًا لفكرة البحث واستكمالًا لها في الإجابة عن سؤال مهم: وماذا بعد اعتناق فكر التصوف؟

– الدراسة التي أعدها الأستاذ الدكتور حسين مراد بعنوان "القاضي عياض (دراسة في النشأة والتكوين العلمي)"، مجلة الدراسات الإفريقية ، معهد البحوث والدراسات الافريقية ، جامعة القاهرة ، العدد ٢٦، ٢٠٠٤م . وتناول فيها بشيء من التفصيل والعرض المتميز نشأة القاضي عياض من مولده وأحوال سبتة السياسية والاقتصادية وأحوال المجتمع ، والحياة الفكرية وأثر كل ذلك في تكوين فكر القاضي عياض وعلمه. ويعد البحث الذي بين أيدينا استكمالًا لما بعد النشأة والتكوين العلمي ، فيرصد ما بعدهما من دور سياسي وعلمي في المجتمع.

وقد اقتضت دراسة هذه الفكرة تقسيمها إلى أربعة عناصر رئيسة :

أولًا: أثر البيئة والنشأة في تشكيل الفكر الثوري: " وهو مدخل تقليدي للتعريف بالشخصيتين محل الحديث ابن بَرَّجَان والقاضي عياض؛ للوقوف على ظروف نشأة كل منهما وتلقيهما العلم، والعلم الذي نبغا فيه، وأثر هذا التكوين العلمي في نشأة الفكر الثوري من عدمه، والغرض هنا المقارنة بين البيئتين لرصد تأثيرهما في تشكيل فكرة الثورة والرغبة في التغيير عند كل من العالمين الجليلين أبي الحكم ابن بَرَّجَان والقاضي عياض .

ثانيًا: المناخ السياسي ومقومات الثورة : ويرصد بيئة قيام الحركة الثورية، بدراسة أحوال الدولة كونها اللاعب الأكبر في تشكيل فكرة الثورة ، فظروفها السياسية وموقفها من العلم والعلماء وقبول الآخر هو العامل الأكثر تأثيرًا في قيام مثل هذه الحركات ونجاحها من عدمه ، كما أن هذا العنصر سيتناول أيضًا قناعات كل عالم الداخلية للقيام بحركته.

ثالثًا : أحداث الثورة : ويتناول في البداية الأسباب المباشرة للنهج في مسار الثورة ، وما ورد في المصادر التاريخية التي تثبت قيادة ابن بَرَّجَان لثورة المريدين في مرحلتها السرية ، وأحداث ثورة القاضي عياض بتأخير البيعة للموحدين ثم خلعهم بعد فترة وإعلان الثورة ضدهم .

رابعًا : موقف السلطة ونهاية الحركة وأهم نتائجها : ويتناول كيف تعاملت الدولة المرابطية مع حركة العالم المتصوف ابن بَرَّجَان ، وكيف انتهت حركته باستقدامه من بلاد الأندلس للعاصمة مراكش ومحاكمته في شكل مناظرة علمية ، ووفاته بعد ذلك ، وكيف تعاملت الدولة الموحدية مع حركة القاضي عياض ، وأنهت ثورته في مدينة سبتة ومصيره بعد ذلك ، وأوجه التشابه والاختلاف بين الحالتين . وأهم نتائج القيام بكلتا الحركتين .

وينتهي البحث بخاتمة تضمنت أهم النتائج التي توصل الباحث إليها، وقائمة بالمصادر والمراجع التي اعتمد عليها.

أولًا - أثر البيئة والنشأة في تشكيل الفكر الثوري:

تؤثر نشأة العالم منذ نعومة أظفاره في تشكيل فكره، ويظهر أثر ذلك في مواقفه العلمية والسياسية، فهل كانت نشأة العالمين ابن بَرَّجَان والقاضي عياض تؤهلهما للقيام بدور الريادة السياسية كما كانا في ريادة علمية بالوقوف في وجه سلطة حاكمة مع اختلاف السبب عند كل منهما؟ وأيضًا أشكلت فكرة التغيير والرغبة عندهما في تسجيل موقف علمي أو سياسي منذ وقت سابق للقيام بالحركة ؟ أم كانت تفكيرًا لحظيًا فرضه الموقف نفسه ؟ هذا ما سيتضح في الصفحات التالية .

والعالم ابن بَرَّجَان [١]هو أبو الحكم عَبْد السَّلام بن عَبْد الرحمن بن محمد اللخمي الإشبيلي، كنيته أبو الحكم، مسقط رأسه قرية طلياطة، إحدى القرى في أحواز مدينة إشبيلية Sevilla [٢]. لم تذكر المصادر التاريخية أو كتب التراجم تاريخ مولده، واكتفت فقط بذكر سماعه من العالم المحدث أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عيسى بن منظور الإشبيلي (ت٤٦٩هـ/١٠٧٦ م)[٣]، الذي سمع منه صحيح البخاري [٤]، واستندت إحدى الدراسات الحديثة إلى هذا التاريخ في القول بمولده في منتصف خمسينيات القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، أي قرابة عام ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م.[٥] وهو بذلك عاش في

---

(١) بِفَتْح الْبَاء الْمُوَحدَة وَتَشْديد الرَّاء وَبعدهَا جِيم وَبعد الْألف نون . انظر : السلاوي الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ، ومحمد الناصري ، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب ، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٧م، ج٢، ص ٧٦.

(٢) ابن الآبار : تكملة الصلة ، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة،بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٥م، ج٣، ص ٢١؛ شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء تحقيق شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، ط٣، ١٩٨٥م ، ج٢٠، ص ٧٢؛ ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٧٤م، ج٥، ص ٣٢٣ ؛ إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين إسماعيل المولفين أسرى المُصنِّفين، المكتبة الإسلامية ، طهران ، ١٩٥٢م ، ص ٥٧٠ .؛ عادل نويهض: معجم المفسرين، مؤسسة نويهض السكافية، بيروت ١٩٨٨، ص. ٢٨٢.

(٣) أبو عبد الله محمد بن منظور القيسي الإشبيلي ، من أشهر علماء إشبيلية في عصره ، تلقى الفقه والحديث بها ، وكانت له رحلة علمية لتلقي علم الحديث ، ثم عاد إلى إشبيلية وتولى القضاء بها ، تلقى عنه علم الحديث عدد كبير من طلاب العلم الذين أصبحوا من أشهر العلماء بعد ذلك . توفي عام ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م .انظر: القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ج٨ بتحقيق سعيد أحمد أعراب، مطبعة فضالة – المحمدية، المغرب ، ١٩٨٣ م ، ص ١٥٥؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ١٨، ص ٣٨٩-٣٩٠.

(٤) ابن الآبار، تكملة الصلة ، ج٢، ص ٥٤٨ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ٢٠، ص ٧٣؛ السيوطي: طبقات المفسرين العشرين ، تحقيق علي محمد عمر ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٣٩٦هـ، ص ٢٠.

(٥) أسامة محمد ماجد عبد الله : المناسبات القرآنية عند ابن بَرَّجَان الأندلسي دراسة منهجية تطبيقية ، رسالة دكتوراه ، كلية العلوم الإسلامية العالمية ، ، عمان ، الأدرن ، ٢٠١٤م، ص ٤٨ .

عصري ملوك الطوائف والمرابطين، فقد حضر ضعف دولة ملوك الطوائف وزوالها، وعصر القوة والازدهار في دولة المرابطين، ثم ضعفها أمام ضربات الممالك النصرانية بعد ذلك.

وتتجلى عبقرية المكان وأثرها في النشأة والتكوين العلمي لابن بَرَّجَان بقرب بلدته ومسقط رأسه من مدينة إشبيلية، إحدى أهم المدن الأندلسية في تلك الفترة، ومنارة علمية مشهورة، فتردد عليها ابن بَرَّجَان كثيرًا في صغره وشبابه لتلقي العلم، ثم قرر الإقامة فيها بعد ذلك، حتى أضحى أحد أهم علمائها، وكان بها أغلب نشاطه العلمي حتى نعت بابن بَرَّجَان الإشبيلي [٦]. ولا شك في أن شهرة علماء إشبيلية الذين تلقى عنهم العلم، أو الذين عاصرهم وتبادل العلم والمعارف معهم ، كان لها أثرٌ كبيرٌ في تكوينه العلمي ونضجه الفكري [٧]. فكان إمامًا في علم الكلام، متعمقًا في تفسير القرآن الكريم، مشهورًا في علم الحديث، عالمًا في النحو، كما أنه صوفيٌ مشهورٌ، حتى لقبوه بغزالي الأندلس .[٨]

وبالوقوف على بعض ما كُتب عنه، يمكن التعرف عن قرب على ملامح فكره، ورصد تأثير تكوينه العلمي في اقتناعه بفلسفة التغيير، والعمل على تغيير السلطة الحاكمة . فابن الآبار يرصد في ترجمته له أهم العلوم التي تلقاها في صغره ونشأ متقنًا إياها، فعلاوة على علمي القراءات والْحَدِيث نبغ في التحقق بعلم الكلام والتصوف مع الزهد والاجتهاد في العبادة.[٩] ومن هذه الشهادة نقف على نقطتين في الشخصية ؛الأولى أنه عالم في العلوم الدينية وربما كانت سببًا في اتجاهه للزهد والتصوف، والثانية إلمامه بعلم الكلام، وهذا سيعطيه قدرة على الإقناع بفكرته التي يؤمن بها فيكثر مريدوه وأتباعه، فهو متصوف زاهد ومتكلم جيد، فإذا ما زاد الأتباع والمريدون منحه ذلك قوة وزعامة دينية وسياسية.

---

(٦) عبد السلام غرميني : معالم من فكر ابن بَرَّجَان ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض ، المغرب ، ع١٢، ١٩٩٣م، ص ٢٣-٢٤.

(٧) ومن أشهرهم شيخه المحدث أبي عبد الله محمد بن أحمد بن منظور ت٤٦٩هـ/ ١٠٧٦ م) ومن عاصرهم العالم أبو الحسن شريح بن محمد بن شريح الرعيني الإشبيلي (ت ٥٣٩هـ /١١٤٤م) والعالم أبو محمد عبد الله بن أحمد بن سعيد الإشبيلي (ت ٥٢٢هـ /١١٢٨م) ، والعالم أبو الحسن يونس بن محمد القرطبي المالكي (ت ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م) ابن الآبار: تكملة الصلة ، ج٢، ص ٥٤٨؛ السيوطي: طبقات المفسرين، ص ٢٠؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تحقيق محمود الأرناؤوط ، دار ابن كثير، بيروت ،ط١، ١٩٨٦م، ج٣، ص ٤٤.؛ العباس بن إبراهيم : الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية بالرباط ، ط٢، ١٩٩٣م، ج٨، ص ٤٧٣.

(٨) ابن الآبار، تكملة الصلة ، ج٢، ص ٥٤٨ ؛ ابن الزبير: أبي جعفر أحمد بن ابراهيم بن الزبير (ت ٧٠٨هـ /١٣٠٨م) : صلة الصلة، وزارة الأوقاف والشون الاسلامية، المغرب ،١٩٩٣م، ج٤، ص٣٣؛ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ٢٠، ص ٧٢ ؛ السيوطي: طبقات المفسرين، ص ٢٠؛

Louis Massignon: Recueil de textes inédits concernant l'histoire de la mystique en pays d'Islam, Paris: Librai- rie orientaliste Paul Geunthner, 1929, pp. 139-140.

(٩) ابن الآبار : تكملة الصلة ، ج٣، ص ٢١.

كما يمكن رصد سمة أخرى لهذه الشخصية من ترجمة ابن الزبير له فقد أكد أنه متصوف يؤثر علم الباطن، مع تمسكه بالكتاب والسنة، ويتعمق في الفكر حتى إنه في تفسيره للقرآن الكريم،"... استقرأ الآيات بعجائب وقرائن من الغيوب، لكنها غامضة في التعبير، لا يصل إلى مفهومها ومدلولها إلا من فهم كلامه ووصل إلى إلهامه...". [١٠]ويتضح من كلام ابن الزبير أنه آثر الميل إلى التعمق في التفكير والغوص في طرح الأفكار بلغة تحتاج للمزيد من التفكير والتعمق لفهمها وربما كان ذلك السبب في عدم قدرة عدد كبير من فقهاء عصره على فهم كلامه عن الفلسفة والتصوف وعلم الكلام، فاتهم بالزندقة، كما سيتضح في الصفحات التالية.

خلاصة القول، اتسمت شخصية ابن بَرَّجَان بالاتجاه للزهد والاجتهاد في العبادة، كما كان بارعًا في علم الكلام، واعتنى بهذا العلم كثيرًا، وهو بذلك يميل إلى الجمع بين التجربة الصوفية والبحث الكلامي لينشد الحقيقة الصادقة[١١]. كما أن مدرسة ابن بَرَّجَان الصوفية امتداد لمدرسة أندلسية عريقة في التصوف، لها جذور ورموز منذ أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي وحتى نهاية دولة الإسلام في الأندلس أواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي[١٢].

أما عن النشأة والتكوين العلمي للقاضي عياض وأثر ذلك في تشكيل الفكر الثوري عنده، فهو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى بن عياض السبتي اليحصبي، وتنتمي الأسرة إلى قلعة يحصب الأندلسية [١٣]، ثم انتقلت الأسرة إلى بلاد المغرب فنزلت مدينة فاس[١٤]، ثم

([١٠]) ابن الزبير : صلة الصلة ، ج٤، ص٣٣. .

([١١]) عبد السلام غرميني : معالم من فكر ابن برجان ، ص ٢٤؛

(12)Miguel Asín Palacios:Tres estudios sobre pensamiento y mística hispanomusulmana, Madrid: Hipe- rión, 1992, 38-45.

([١٣]) قلعة يحصب (قلعة بني سعيد) شمال غرب غرناطة، تقع بينها وبين قرطبة . تنسب إلى أمرائها من بني سعيد أحفادَ الصحابي عمَّار بن ياسر، وإليهم تنسب ، كما سُميتْ بقلعةَ يحصب؛ لأنَّ هذه القبيلة اليمنية كانت قد نزلت بها بعد فتح الأندلس. فقد دخل عبد الله بن عمار بن ياسر أثناء فتح الأندلس . انظر : المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر ، بيروت ، لبنان، ١٩٧٧م، ج٢، ص ٣٣٠.

([١٤]) مدينة فاس : مدينة مغربية، يرجع تأسيسها إلى عصر الأدارسة ،كانت عاصمتهم بعد أن قام إدريس الثانى بتأسيسها عام ١٩٣هـ/٨٠٨م .استقبلت الأندلسيين الذين تم نفيهم من الأندلس فى عهد الأمير الأموى الحكم بن عبد الرحمن بعد ثورة الربضيين بقرطبة عام ٢٠٢هـ/٨١٧م. وفى عهد بنى مرين كانت عاصمة لدولتهم . انظر : الحميرى : الروض المعطار في خبر الأقطار ، مؤسسة ناصر للثقافة – بيروت – طبع على مطابع دار السراج ، ط٢، ١٩٨٠ م ، ص ٤٣٤–٤٣٥ .

سكنت مدينة سَبتة [١٥] التي شهدت مولد القاضي عياض في مُنتصَف شعبان من سنة ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م[١٦] وبها نشأ، ولشهرة المدينة العلمية بين مدن المغرب الأقصي، كان الجو العلمي مناسبًا جدًا لنهل المعارف والعلوم من علماء المغرب والأندلس البارزين في شتى العلوم [١٧] .

أما عن المذهب الذي كان عليه القاضي عياض فقد كان من أبرز أعلام المالكية، مذهب غالبية العلماء في المغرب والأندلس في تلك الفترة، علاوة على أنه مذهب الدولة المرابطية. [١٨]ويدلل على فقه القاضي عياض ونبوغه فيه توليه القضاء في مدينة سبتة عام ٥١٥هـ /١١٢١م كما تولى القضاء في غرناطة عام ٥٣١هـ/ ١١٣٦م ، ثم قضاء سبتة للمرة الثانية عام ٥٣٩هـ / ١١٤٤م. [١٩]

([١٥]) سبتة: بفتح السين وسكون الباء، مدينة ساحلية من مدن المغرب الأقصى. مشهورة بماضيها العريق فى الثقافة الإسلامية.وهى عبارة عن شبه جزيرة فى مضيق جبل طارق، تحيط بها الجبال من ناحية الجنوب. وموقعها هذا جعل اتصالها بالأندلس يسيرًا . انظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان ، دار صادر، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٥م ، جـ٥، ص ٢٦؛ ابن الخطيب:معيار الاختيار ، ص ١٠١-١٠٢.

([١٦]) الضبي : بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧م، ص ٤٢٣؛ : ابن الآبار : معجم أصحاب القاضي أبي علي الصدفي ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر،ط١، ٢٠٠٠م ، ص ٢٩٤؛ ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور ، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة،ج٢، ص ٤٦-٤٧؛ السيوطي: طبقات المفسرين، ص ٢٠ ؛ المقري: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، تحقيق مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة، ١٩٣٩م، ج١، ص ٢٣-٢٩؛ حسين مراد: القاضي عياض ، ص ٢-٤؛ القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ،ج١بتحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، مطبعة فضالة – المحمدية، المغرب ، ١٩٦٥م، مقدمة المحقق ، ص ٥.

([١٧]) ومن أشهر العلماء الذين تلقى القاضي عياض العلم على أيديهم القاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمي(ت ٥٠٥هـ /١١١١م والقاضي الخطيب أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد المعافري(ت٥٠٢هـ /١١٠٨م) ، الشيخ الصالح أبو علي الحسن بن علي بن طريف النحوي التاهرتي (ت٥٠١هـ/١١٠٧م) وغيرهم. كما أنه كانت له رحلة علمية إلى بلاد الأندلس عام ٥٠٣هـ / ١١٠٩م تلقى فيها العلم على يد كوكبة من العلماء في قرطبة Cordoba ومرسيةMurcia ، وغيرهما من البلاد الأندلسية . انظر: ابن فرحون : الديباج المذهب، ج٢، ٤٧؛ السيوطي: طبقات المفسرين، ص ٢٠؛ عبد الله بن محمد علي بن حيدر: القاضي عياض وكتابه ترتيب المدارك، مجلة المؤرخ العربي، اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، ع١٥، ٢٠٠٧م، ص ٥٠٥-٥٠٧؛ أحمد بن محمد فكير: من أعلام المدرسة الحديثة بالمغرب(القاضي عياض ت ٥٤٤هـ)، بحوث الندوة العلمية الأولى ، الناشر مركز بن القطان للدراسات ، المغرب ، مج١، ٢٠١١م، ص ٢١٤-٢١٥؛

([١٨]) أبي عبد الله محمد بن عياض: التعريف بالقاضي عياض ، تحقيق محمد بن شريفة ، منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية والثقافة ، المغرب ، ١٩٨٢م، ص ٢؛ ابن فرحون : الديباج المذهب، ج٢، ٤٧؛ السيوطي: طبقات المفسرين، ص ٢٠؛ القاضي عياض: ترتيب المدارك ، ج١،مقدمة المحقق ، ص ٥؛

Louis Massignon: Recueil de textes inédits concernant,p.140-141.

([١٩]) محمد بن عياض: التعريف بالقاضي عياض ، ص ١٠-١١؛ ابن فرحون : الديباج المذهب، ج٢، ٤٧؛ المقري: أزهار الرياض، ج٣، ص ١١؛ ؛ فكير : القاضي عياض، ص ٢١٧.

ورصد الأستاذ الدكتور حسين مراد أثر البيئة الجغرافية والاقتصادية في التكوين الفكري عند القاضي عياض وخلُص إلى أن الأوضاع المستقرة في بلاد المغرب والأندلس بوجه عام ومدينة سبتة بوجه خاص، كان لها أثرها في تفرد القاضي عياض وتقدمه في مجال العلم والمعرفة والثقافة، وأن المجتمع في سبتة بأحواله الجغرافية والاقتصادية كان له تأثيرٌ كبيرٌ في هذا التشكيل، فالإنسان نتاج مجتمعه. [٢٠]

أما عن العصر وأثره في النشأة والتكوين الفكري فقد عاصر القاضي عياض أمراء دولة المرابطين بداية من عصر الأمير يوسف بن تاشفين[٢١] (٤٥٣-٥٠٠هـ/ ١٠٦١-١١٠٦م) حتى سقوط دولتهم عام٥٤١هـ /١١٤٦م ، كما عاصر قيام دولة الموحدين وفترتها الأولى من فترة ظهور زعيمها ومؤسسها محمد بن تومرت الملقب بالمهدي [٢٢](٥١٢- ٥٢٤ هـ/١١١٨- ١١٢٩)، وفترة من عصر خليفته عبد المؤمن بن علي الكومي[٢٣](٥٢٤- ٥٥٨ هـ/ ١١٢٩-١١٦٢م).

وبالنظر للخريطة الزمنية – سالفة الذكر– التي عاشها القاضي عياض، فقد عاصر دولتين من أقوى الدول الإسلامية التي حكمت بلاد المغرب والأندلس،الأولى؛ دولة المرابطين وما كان فيها من حياة علمية مزدهرة، وتقديرٍ كبيرٍ للعلم والعلماء، وتقريبهم منهم، والعمل على ازدهار العلوم والمعارف في العدوتين المغربية والأندلسية، كما استفاد المغاربة من الانفتاح على بلاد الأندلس وما كان من ازدهار

([٢٠]) حسين مراد: القاضي عياض دراسة في النشأة والتكوين العلمي مجلة الدراسات الإفريقية معهد البحوث والدراسات الافريقية ، جامعة القاهرة ، العدد ٢٦، ٢٠٠٤م، ص ١٣-١٤.

([٢١]) الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن تورقيت بن ورتاقطن بن منصور الصنهاجي ، ولد عام ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م، مؤسس دولة المرابطين في بلاد المغرب ، وهو قائدهم في معركة الزلاقة في بلاد الأندلس ضد مملكة قشتالة ٤٧٩هـ /١٠٨٦م والتى حقق فيها نصرًا عزيزًا عليهم، قاد المرابطين من عام ٤٧٣هـ / ١٠٦١ وتوفي عام ٥٠٠ هـ /١١٠٦م. انظر: ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس،دار المنصور للطباعة ، الرباط، ١٩٧٢م، ص ١٣٥-١٤٤؛ مجهول : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق سهيل ذكار ، وعبد القادر زمامة ، دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء ، ط١، ١٩٧٩، ص ٢٢-٣٠.

(٢٢) محمد بن تومرت : هو محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدن بن سفيان بن صفوان بن عطاء بن رياح بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وهو من قبيلة هرغة من قوم يعرفون ياسراغتن . له عدة رحلات مشرقية ومغربية لطلب العلم ، من الأندلس ثم وصل الى المشرق فزار مكة . انظر: البيدق: أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين ، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط ١٩٧١م ، ص١٢ – ١٣ ، ابن القطان : نظم الجمان لترتيب ما سلف من اخبار الزمان ، تحقيق : محمود على مكي دار الغرب الاسلامي بيروت ط٢ ، ١٩٨٠ ، ص٨٧ .

(٢٣) عبد المؤمن بن علي : هو أبو محمد عبد المؤمن بن على القيسى الكومى ، من كومية هنين ، وهى قبيلة زناتية صغيرة ، من قوم يقال لهم بنو مجبر ، ولد فى بلدة تاجرا من أعمال مدينة تلمسان فى عام ٤٨٧هـ/١٠٩٤م ابن أبي زرع : روض القرطاس ، ص١٨٣ .

علمي بها، وتولى القاضي عياض المناصب الإدارية في الدولة، فقد تولى القضاء لأمرائهم، وكان قريبًا منهم، يقبلون قوله، ويتنافسون في قضاء حقه [٢٤]. كما أنه عاصر نشأة فكرة التغيير بالقوة عند الموحدين وبداية حركة المهدي بن تومرت وموقف علماء المغرب منها، وموقف السلطة الموحدية، وما كان من فرض لسيطرتهم بالقوة، وما فعلوه ببلاد المغرب، وكيف كان لذلك تأثير في فكر القاضي عياض واعتقاده واتخاذ موقف قوي ضدهم، كما سيتضح في الصفحات التالية .

ثانيًا: المناخ السياسي ومقومات الثورة:

كانت الأحوال السياسية في بلاد الأندلس وما آلت إليه في كثير من عمر الدولة الإسلامية بها سببًا من أسباب اتجاه العلماء لتسجيل موقف سياسي، ففي فترات الضعف يزداد الخوف من المستقبل والشعور بهشاشة الدولة، فينمي ذلك عندهم أحد أمرين كلاهما مر، الأول التفكير في الهجرة وترك البلاد لمصيرها، وهذا ما ركن إليه عددٌ كبيرٌ من علماء الأندلس، والأمر الثاني كان تسجيل موقف سياسي بالوقوف في وجه المد المسيحي والصمود والمواجهة، مع الوقوف في وجه السلطة الحاكمة إذا كانت قد آلت للضعف ولم تعد قادرة على حماية المسلمين والتصدي لأطماع أعدائهم . [٢٥]

وقد يتساءل بعضهم ما شأن العلماء والسلطة الإسلامية الحاكمة؟ أيساعد الخروج عليها والثورة ضدها يساعد في جمع المسلمين على كلمة الجهاد والتصدي للعدو، أم أن ذلك قد يزيد الطين بِلَّة ؟

ويجيب العالم الأندلسي ابن حزم عن هذا التساؤل حينما رأى بأم عينيه ملوك الطوائف وقد اختلفوا فيما بينهم وبدأوا في تمزيق دولتهم بأيديهم فوصف هذه الحالة بقوله "... اللهم إليك نشكو تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياهم عن إقامة دينهم، وبعمارة قصور يتركونها عما قريب عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم في معادهم ودار قرارهم، وبجمع أموال ربما كانت سببًا في انقراض أعمارهم وعونًا لأعدائهم عليهم ..."[٢٦].

وثمة مواقف سياسية كثيرة سجلها علماء الأندلس بسبب الأحوال السياسية المتردية التي آلت إليها دولتهم في فترات الضعف، فبعد قرابة الخمسين عامًا من سقوط دولة ملوك الطوائف في بلاد الأندلس على يد قوة فتية جديدة رفعت راية الجهاد ضد الممالك النصرانية وهي قوة المرابطين، بدأت مواقف سياسية جديدة تسجل بعد أن حل الضعف مرة أخرى بدولة المسلمين في بلاد الأندلس، ولم تعد الدولة

([٢٤]) ابن فرحون : الديباج المذهب، ج٢، ٤٧؛ السيوطي: طبقات المفسرين، ص ٢٠؛ حسين مراد: القاضي عياض ص ٩-١٠.؛ القاضي عياض: ترتيب المدارك ، ج١،مقدمة المحقق ، ، ص ٥.

([٢٥]) محمد زنير : المحيط التاريخي لابن برجان ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش ، جامعة القاضي عياض ، مراكش ، المغرب ، ع ١٢، ١٩٩٣م، ص ١٥؛

Louis Massignon: Recueil de textes inédits concernant,p.141-143.

([٢٦]) ابن حزم: رسائل ابن حزم الأندلسي ، تحقيق إحسان عباس ، مؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ،ط١، ١٩٨١م، ج ٣، ص ٤١.

المرابطية قادرة على القيام بدورها في حماية المسلمين في الأندلس.[٢٧] ففقد المسلمون عدة بلدان أمام المد النصراني كمدينة سرقسطة عاصمة الثغر الأعلى عام ٥١٢هـ /١١١٨م ، مع تكرار تلقيهم الهزيمة تلو الأخرى أمام قوات الممالك النصرانية، فسقطت هيبة الدولة، وبات الناس يبحثون عن حلول. [٢٨]

وكانت فترة حكم المرابطين قد شهدت وجود أعلام من رموز الصوفية في بلاد الأندلس، كان لهم بالغ الأثر في تنامي التيار الصوفي بشكل ملموس وعلى محل الحديث أبو الحكم بن بَرَّجَان (ت ٥٣٦هـ /١١٤١م) زعيمهم في إشبيلية، وأبو العباس بن العريف[٢٩] (ت ٥٣٦هـ /١١٤١م) زعيمهم في المرية[٣٠] وأبو القاسم أحمد بن الحسين بن قَسِيّ[٣١] (ت٥٤٦هـ /١١٥١م)،قائد ثورة المريدين في مرحلتها العلنية المسلحة ضد المرابطين، وجميعهم رموزُ للفكر الصوفي في بلاد الأندلس ولهم مدارسهم الصوفية. [٣٢]

---

(٢٧) محمد زنير : المحيط التاريخي لابن برجان ، ص ١٦-١٧.

(٢٨) تلقى المرابطون في بلاد الأندلس عدة ضربات موجعة منذ مطلع القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ، ففي عام ٥٠٨هـ /١١١٥م هُزم في سهل برشلونة ، أما قوات برشلونة، وفي عام ٥١٢هـ /١١١٨م تلقى المرابطون ضربة موجعة بسقوط مدينة سرقسطة عاصمة الثغر الأعلى ومركز شرق الأندلسعلى يد الملك الأراجوني ألفونسو الأول المحارب ، وفي عام٥١٤هـ / ١١٢٠م كانت فاجعة المسلمين في مدينة كتندة ، ثم كانت صولات وجولات ملك أراجون ألفونسو الأول الذي عاث في بلاد الأندلس عام ٥٢٠هـ /١١٢٧م ، وقتل وسبى ودمر وخرب. انظر : ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض ، ص ٢٠٣-٢٠٤؛ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس العصر الثالث عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، مكتبة الخانجي ، القاهرة، ط٢، ١٩٩٠م، ص ٩٠-١١٥.

(٢٩) أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله ، الأندلسي ، من أهل المرية، يكنى :أبا العباس، ويعرف :بابن العريف ، ولد في المرية عام ٤٨١هـ / ١٠٨٨م . كان رمزًا للصوفية في مدينة المرية ، وكان الناس قد ازدحموا عليه يسمعون كلامه ومواعظه ، وزاد مريدوه، فخوف الفقهاء على بن يوسف بن تاشفين منه ، وقالوا له سيكون نموذج من ابن تومرت في بلاد المغرب ، مما سيضعف الدولة ولذلك قيل أنه قتل مسمومًا سرًا في عام ٥٣٦هـ /١١٤١م، قيل عنه أنه اشتهر بالعمل والعلم والزهد الفقيه المحدث أحد أعلام الصوفية ورجال الكمال صاحب كرامات. انظر :ابن بشكوال: الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، تحقيق السيد عزت العطار، مكتبة الخانجي ، القاهرة ،ط٢، ١٩٥٥م، ص٨٣؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج٢٠، ص ١١١-١١٣.

(٣٠) المرية Almeria : تقع على الساحل الشرقى للأندلس، جنوب شرقى بجانة، على حافة البحر المتوسط، وهى مدينة برية بحرية ، وكانت عاصمة ولاية المرية فى زمن بنى الأحمر . شيدها الخليفة الأموى عبد الرحمن الثالث (الناصر) فى عام ٣٤٤هـ/ ٩٥٦م، لتكون قاعدة بحرية . بينها وبين مالقة ٢٢٢كم ، انظر: ابن الخطيب: معيار الاختيار فى ذكر المعاهذ والديار- ضمن مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق أحمد مختار العبادى، الإسكندرية،١٩٨٣، ص ٥٧؛ الحميري:الروض المعطار ،ص ص ٥٣٧-٥٣٨.

(٣١) أبو القاسم أحمد بن الحسين ابن قسي ، صوفي معاصر لابن برجان وابن العريف ، وهو من استفاد من مرحلة الدعور السرية للثورة ضد المرابطين ، وأول من ثار بعد وفاة ابن برجان وابن العريف وأصله من مدينة شلب ، تعلم العلم ثم عكف على الوعظ وكثر مريدوه فادعى (الهداية) وتسمى بالإمام ، انكشفت ثورته من البداية فقبض على عدد من أصحابه فسيقوا إلى إشبيلية ، فأشار من مختبأه على من بقي من أصحابه بمهاجمة قلعة ميرتلة (في غرب

وبعد حياة العزلة التي نهجها ابن بَرَّجَان وغيره من المتصوفة في أواخر عصر المرابطين في الأندلس، بدأت تتشكل حركة يمكن القول إنها دخول المتصوفة في معترك الحياة السياسية بتشكيل ما يسمى بحركة المريدين الثورية، التي تشكلت بقصد الثورة على الدولة المرابطية في أواخر أيامها .

ولتحليل الأسباب التي دفعت بعض المتصوفة لاتخاذ موقف معاد للدولة المرابطية والثورة عليها، والعمل على إنهاء حكمها السياسي في بلاد الأندلس توجد عدة فرضيات يجب الوقوف عندها، وتبدأ هذه الفرضيات بتساؤل مهم، وهو: كيف كانت علاقة المتصوفة بالسلطة المرابطية منذ قيام الدولة؟ أكانت على وتيرة واحدة أم كانت متقلبة في بعض الأحيان ؟

وتكمن الإجابة على هذا التساؤل في الغوص في فكر الحكام المرابطين ومرجعيتهم الدينية، وبعض المواقف التي اتخذوها، فالدولة المرابطية حكامها زهاد كانوا يقربون العلماء وبخاصة فقهاء المالكية منهم، واتخذوهم أهلًا للمشورة في قراراتهم، وكان لهم نفوذ كبير على السلطات العامة وسلطات الدولة ، وكان لذلك أثره في عصر ثاني حكامهم الأمير عليَ بن يوسف [٣٣](٥٠٠ – ٥٣٧هـ/١١٠٧ – ١١٤٢م) الذي استمع لفتواهم بوجوب إحراق كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي(ت ٥٠٥هـ /١١١١م) في

الأندلس) فاستولوا عليها وجاءهم ابن قسي ، فتولى حكمها ثم خلعه أهلها ثم أعادوه ، ثم عبر إلى الموحدين السلطة الجديدة في المغرب سنة ٥٤٠ هـ/ ١١٤٥م وتبرأ من ثورته ، ثم أعاده الموحدون لحكم شلب ، ثم قتله أهل شلب. انظر: ابن الآبار : الحلة السيراء ،تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢، ١٩٨٥م، ج٢، ص ١٩٧– ١٩٩؛ عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت،ط١ ٢٠٠٦م، ص١٥٥؛ محمد الأمراني: ثورة المريدين، ابن قسي ملامح من حياته السياسية والصوفية ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة القاضي عياض، المغرب ، ع١٢ ، ١٩٩٣م، ص ١٠٧–١١٠.

(32)Maribel Fierro : Opposition to Sufism in al-Andalus", in Islamic Mysticism contested. Thirteen Centuries of Controversies and Polemics, ed. F. de Jong y B. Radtke, Leiden: Brill, 1999, pp. 174 -176..

([٣٣]) على بن يوسف بن الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين ، تولى عام ٥٠٠هـ / ١١٠٧م بعد أبيه علي وفي عهد شهد المغرب استقرارًا لفترة طويلة من حكمه ، وامتلك مالم يمتلكه والده فقد ملك جميع بلاد المغرب من بِجَاية(، إلى بلاد السُّوسُ الأقصى ، وملك جميع بلاد الجنوب من سِجِلْماَسة إلى جبل الذهب من بلاد السودان. واستمرت الدولة في عزها وإزدهارها إلى أن ظهر محمد بن تومرت وتوفي عام ٥٣٧ هـ / ١١٤٢م. . انظر: ابن الخطيب : ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام ، تحقيق سيد كسري حسن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، د.ت ،، ج٣ ، ص٢٥٣؛ سلامة محمد سلمان الهرفي : الأحوال السياسية وأهم مظاهر التطور الحضاري لدولة المرابطين في عهد علي بن يوسُف بن تاشُفِين(٥٠٠–٥٣٧هـ) ، رسالة ماجستير منشورة ، جامعة أم القرى ، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، مكة المكرمة ، ١٩٨٢م ، ص٣٦–٣٧.

عام ٥٠٣هـ /١٣٠٩م[٣٤] وأفتوا بأنه لا تجوز قراءته بحال[٣٥]،على الرغم من العلاقة الطيبة التي كانت تجمع الغزالي نفسه بيوسف بن تاشفين مؤسس الدولة[٣٦].

لذلك يمكن استخلاص أن العلاقة كانت جيدة إلى حد كبير بين السلطة المرابطية والمتصوفة منذ قيام الدولة وحتى فترة من حكم الأمير عليَ بن يوسف بن تاشفين ،بسبب معارضة عدد كبير من المتصوفة قيامه بإحراق كتب الإمام الغزالي، وبدأت العلاقة بين الجانبين في التنافر والتوتر متخذة عدة أشكال رغم محاولة الأمير عليَ نفسه استيعابهم أحيانًا وتتبعهم أحيانًا أخرى خوفًا من إثارتهم للتوتر والفوضى داخل دولته كما سيتضح في الصفحات التالية .

والمدقق في تاريخ هذه الدولة يعلم أنه قبيل دخول العقد الثالث من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي بدأت الدولة المرابطية تتخذ منحنىً نحو الضعف والهبوط، فعلى الرغم من انتصارها في موقعة البحيرة عام ٥٢٤هـ / ١١٣٠م[٣٧]ضد قوة الموحدين الناشئة والهادفة لإسقاط سلطة

---

(٣٤) في بداية سنة ٥٠٣ هـ/١١٠٩ م وقع في قرطبة حادث كبير الدلالة، عميق الأثر، بالرغم من عدم أهميته الظاهرة، هو إحراق كتاب "إحياء علوم الدين " للإمام أبى حامد الغزالي، فقد كان على بن يوسف أمير المرابطين يميل إلى إيثار الفقهاء ومشاورتهم ، فاشتد نفوذ الفقهاء بالمغرب والأندلس في عهده، حتى أصبح لا يقطع في أمر من الأمور، صغيراً كان أو كبيراً إلا برأيهم ، وسخط الفقهاء المرابطون، وأنكروا كثيراً من المسائل التي وردت في كتاب "الإحياء" " وزعموا أنها مخالفة للدين، وكان قاضي قرطبة أبو عبد الله محمد بن حمدين من أشد الفقهاء مبالغة في ذلك حتى أنه قال "بتكفير "من قرأ كتاب " الإحياء ."ورفع ابن حمدين ومعه فقهاء قرطبة، الأمر إلى علي بن يوسف، وأجمعوا على وجوب مطاردة كتاب " الإحياء "وإحراقه ، فقام بذلك أما باب جامع قرطبة . انظر: محمد عبدالله عنان: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، ص ٧٨-٧٩.

(٣٥) ابن العربي: قانون التأويل ، تحقيق محمد السليماني ، دار القبلة للثقافة الإسلامية ، الرياض ، ط١، ١٩٨٦م، ص ٥٤ ؛ آنخل جونثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٥م، ص ٣٧٥-٣٧٦؛ محمد المنتصر الكتاني : الغزالي والمغرب ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، القاهرة ، ١٩٦٢م، ص ٧١٠؛ .

(٣٦) ابن العربي : رسائل ابن العربي ، منشوره كملحق في كتاب عصمت دندش : دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا ٤٣٠-٥١٥هـ /١٠٣٨-١١٢١م ، مع نشر وتحقيق رسائل أبي بكر بن العربي ، دار الغرب الإسلامي، بيوت ، لبنان ، ١٩٨٨م، ص ١٩٥؛

Hülya Küçük:Light upon Light in Andalusī Sufism: Abū l-Ḥakam Ibn Barrajān (d. 536/1141) and Muḥyī l- Dīn Ibn al-ʿArabī (d. 638/1240) as Developer of His Hermeneutics. Part 1: Ibn Barrajān's Life and Works, Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft , Vol. 163, No. 1 (2013), pp. 89-91.

(٣٧) سميت المعركة بمعركة البحيرة نسبة إلى المكان التى دارت فيه وهو بستان كبير قرب مراكش والبستان فى اللغة المحلية للبربر فى تلك الفترة يسمى بحيرة . عن المعركة ونتائجها انظر: ابن خلدون: العِبَر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر ، بيروت، ط١ ، ١٩٨١م ، جـ٦، ص ٢٢٩؛ الزركشى : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور ، المكتبة العتيقة ، تونس ، ١٩٦٦م، ص ٧؛ محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين في الأندلس ص١٨٩-١٩٠.

المرابطين؛ فإن أن هذه المعركة كانت ذات دلالات واضحة عند القوة المرابطية بوجوب توحيد الجبهة الداخلية وبدأت تغير من سياستها في بعض المواقف باستقطاب قوة ناعمة يمكن الارتكاز عليها وقت الحاجة أو على الأقل تجنب الصدام معها وهي قوة المتصوفة وأتباعهم.

وكان عام ٥٠٣هـ/١٥٠٩م نقطة فارقة في علاقة المتصوفة بالمرابطين بإحراق كتاب إحياء علوم الدين للغزالي، فبدأ المتصوفة في العزوف عن السلطة، واتخذوا موقفًا منها قبل إعلان الثورة عليها، يدلل على ذلك أن أحد رموزهم المتصوف أبو العباس بن العريف (ت ٥٣٦هـ /١١٤١م) كان يعزف عن مجالسة الأمير علي بن يوسف ويرفض هداياه، وحاول الأمير أن يسترضيه ويسأله عن حوائجه ليقضيها له فترفع عن ذلك ولم يستجب. (٣٨)

كما أنه في عام ٥٢٧هـ/١١٣٢م أرسل الأمير عليَ بن يوسف لأحد أهم رموز المتصوفة من أسرة صوفية هي أسرة آل أمغار، وهو أبو عبد الله محمد بن الشيخ أمغار(ت٥٣٧هـ/١١٤٢م) " يلتمس منهم الدعاء ويعرفهم بأن له فيهم حسن الظن والرجاء ومما جاء فيها"... قد علمنا ما أنت عليه من الخير والدين، والجد في أحوالك على النهج الصالح المستبين ، فاعتقدناك في الأولياء ، ورتبناك في أهل الذكاء، وخاطبناك نادين لك إلى اختصاصنا بخالص الدعاء ، فاقسم لنا حظًا من ابتهالك في الأوقات المرجوة..".(٣٩)

لكن كانت هذه الأسرة كغيرها من رموز المتصوفة تعارض بشدة بعض سياسات المرابطين وبخاصة فيما يتعلق بإحراق كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ، وربما كان ذلك سبب تخلف شيخهم أبي عبد الله محمد بن الشيخ أمغار عن الحضور لمراكش(٤٠) بدعوة من الأمير علي بن يوسف للحضور إلى قصره كغيره من المتصوفة من صلحاء المغرب لمناقشة مسألة إحراق كتب الغزالي.(٤١)

وانتشرت هذه الظاهرة بين المتصوفة متجنبين التقارب مع السلطة المرابطية، حتى إن رموز المتصوفة كانوا يوصون طلابهم وتلامذتهم بالابتعاد عن السلطان والزهد في المناصب. (٤٢)

---

(٣٨) أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، د.ت ، ص ٥٩؛

Bellver, Jose. "'Al-Ghazali of al-Andalus': Ibn Barrajan, Mahdism, and the Emergence of Learned Sufism on the Iberian Peninsula." *The Journal of the American Oriental Society*, vol. 16, no. 4, Oct.-Dec. 2013, pp. 659-260.

(٣٩) محمد بن عبد العظيم الأزموري: بهجة الناظرين وأنس الحاضرين في مناقب رجال أمغار الصالحين ، تحقيق زهير بن أحمد بن الهادي، مطبعة الرباط نت،٢٠٢٣م ، ص ١٠٩ .

٤٠) مراكش : مدينة مغربية تقع جنوب جبل درن ، اختطها المرابطون عاصمة لهم ، وكان أول من اختطها يوسف بن تاشفِين من عام ٤٧٠هـ / ١٠٧٨م . انظر : ياقوت الحموي: معجم البلدان ، ج٥ ، ص٩٤ .

(٤١) محمد بن عبد العظيم الأزموري: بهجة الناظرين ، ص ١٠٩ –١١٠ .؛

Bellver, Jose. "'Al-Ghazali of al-Andalus': Ibn Barrajan,p.661

(٤٢)ابن الزيات : التشوف لرجال التصوف ، تحقيق أحمد التوفيق ، منشورات كلية الآداب ، الدار البيضاء ، ١٩٨٤، ص ٩٣؛

يتضح من كل ما سبق أن الأمور كانت قد تبدلت في بلاد المغرب والأندلس بالنسبة لعلاقة السلطة المرابطية مع المتصوفة، ومن هنا بدأ المتصوفة في اتخاذ مواقف سياسية متصاعدة بقصد الوقوف في وجه السلطة . فهل ستقف السلطة المرابطية موقف المتفرج من هذه الأمور ؟ هذا ما ستجيب عليه الصفحات التالية .

أما عن المناخ السياسي والديني وفكرة الثورة والتغيير عند القاضي عياض فقد كان الجو العام في بلاد المغرب يوحي بصفة عامة بأنه ستكون هناك حركات تصنف على أنها معارضة للسلطة الموحدية، كما يمكن القول بأن مقدمات ثورة ضدهم، بعنوان رفض الخضوع لهم، قد لاحت في الأفق، فثمة اختلاف كبير من وجهة نظر العلماء المغاربة بين الدولتين المرابطية والموحدية، فالدولة المرابطية كما ذكر صاحب كتاب الحلل الموشية عن شيخ القاضي عياض العالم أبي بكر بن العربي(٥٤٣هـ / ١١٤٨م) "... قاموا بدعوة الحق ونصرة الدين، وهم حماة المسلمين، الذابون عنهم، والمجاهدون دونهم، ولو لم يكن للمرابطين فضيلة وتقدم ، ولا وسيلة، إلا واقعة الزلاقة، ..... لكان ذلك من أعظم فخرهم ،... فسبحان من لا يبيد ملكه ولا يفنى دوامه، لا إله إلا هو العلي العظيم..."[٤٣]

فإذا كان هذا رأي شيخ القاضي عياض؛ فمن المؤكد أن غالبية العلماء في بلاد المغرب والأندلس كانوا يتبنون الرأي نفسه، فيما يتعلق بالمقارنة بين الدولتين فالدولة الموحدية التي قامت هي الأخرى على فكرة دينية معادية لسلطة المرابطين،اتخذت طابعًا دمويًا في مواجهة السلطة، فأصبحت من وجهة نظر العلماء متغلبة لا تجوز بيعتها، لأنه وقت ظهور الموحدين بوصفهم قوة دينية وسياسية، كان لا يزال أمراء من المرابطين على قيد الحياة، وكانت لهم في أعناق الناس بيعة. كما أن القاضي عياض قد شاهد دولة المرابطين في أوج قوتها، وأقصى اتساعها، ومظاهر حضارتها، ثم شاهدها تضعف وهي طريقها للسقوط تتلقى الهزيمة تلو الأخرى على يد الموحدين.

وكان الموحدون ينظرون إلى العلماء وبخاصة الفقهاء نظرة خاصة بهم، فالفقهاء من وجهة نظر الموحدين وصاحب دعوتهم محمد بن تومرت الملقب بالمهدي "... منهم الملبسون أعني المكارين الذين يضلونهم بغير علم، ويتوسلون بفتياهم إلى أباطيلهم وأهوائهم كلما سألوهم عن شيء أفتوهم به على ما وافق أهواءهم وأغراضهم، فضلوا وأضلوا..."[٤٤].

خلاصة القول كان عبد المؤمن بن عليَ قائد الموحدين ينظر للقاضي عياض على أنه عدو الدعوة الموحدية كغيره من العلماء، فالقاضي عياض فقيه من فقهاء المرابطين وأحد قضاتهم الأفذاذ،

Hülya Küçük:Light upon Light in Andalusī Sufism: Abū l-Ḥakam Ibn Barrajān (d. 536/1141) and Muḥyī l- Dīn Ibn al-ʿArabī,pp.88-89.

(٤٣) مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٤٠.

(٤٤) ابن تومرت : أعز ما يطلب ، تحقيق عبد الغني أبو العزم ، مؤسسة الغني للنشر ،الرباط ، دار وليلي للطباعة ، مراكش ، ١٩٩٧م، ص ٣٩٨ ، .

وكان القاضي عياض ينظر إلى الموحدين على أنهم أعداء الدين والبلاد، الذين يعملون على إسقاط دولة المجاهدين الأفذاذ مثله مثل شيخه أبي بكر بن العربي، مع إدانته الكاملة لهذه السلطة، وهو ما ينذر بضرورة المواجهة على الأقل الفكرية، فالقاضي عياض حتمًا ستكون له مواجهة فكرية ضد الفكر الموحدي قبل أن يقود ثورة ضدهم.

أما فيما يتعلق بتأخير بيعة القاضي عياض للموحدين والوقوف في وجه السلطة الموحدية فيتعلق برؤية القاضي عياض لسلطة الموحدين وفكرهم الديني وعدم أحقيتهم بحكم البلاد من ناحية، وولائه الشديد للمرابطين من ناحية أخرى، وكانت لا تزال في رقبته لهم بيعة طالما كان أميرهم تاشفين بن علي[٤٥] (٥٣٧ – ٥٣٩هـ/١١٤٢ – ١١٤٤م) على قيد الحياة، حتى قتله الموحدون وتولى ابنه إبراهيم بن تاشفين[٤٦] (٥٣٩– ٥٤٢هـ /١١٤٤–١١٤٧م) علاوة على طريقة الموحدين في ضم البلاد بسفك الدماء، مرتكبين مذابح بشعة.[٤٧]

ويتضح مما سبق تباين المناخ السياسي والديني لكل من الحركتين وإذا ما عُقِدَت مقارنة بين المناخين السياسي والديني غداة قيام كل حركة؛ نجد أن حركة ابن بَرَّجَان كانت قد بدأت بعد انتهاء فترة القوة الحقيقية لدولة المرابطين، وتحول المناخ السياسي في بلاد المغرب والأندلس للسير بخطوات حثيثة نحو زوالها، فقد تلقت عدة ضربات لم تكن فقط نتيجة لحوادث تتعلق ببلاد المغرب، فعلاوة على ظهور أمر الموحدين وبداية الحرب المسلحة بينهما، عجز المرابطون عن حماية بلاد الأندلس من غزوات الممالك النصرانية المحيطة بها، وبدأت تفقد مساحات واسعة، كما كان هناك عامل مهم للغاية من عوامل قيام الثورة الأندلسية ضد الحكم المرابطي، يكمن في نشأة الفكرة القومية في أذهان فريق كبير من أبناء

---

(٤٥) الأمير تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين تولى الحكم بعد والده عليّ بن يوسُف وبالرغم من المحاولات اليائسة التي كان يبدلها في صد ضربات الجيش الموحدي المتتالية إلا أنها لم تفلح فالصراع دخل مرحلته الأخيرة ، في هذا الوقت كان عبدُ المؤمن قد سيطر على أحواز تِلِمسْان متقدماً إلى المدينة نفسها في أواخر عام ٥٣٨هـ/١١٤٣م . انظر: ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ١٦٥–١٦٧؛ القلقشندي : مآثر الاناقة في معالم الخلافة ، تحقيق : عبدالستار احمد فراج ، عالم الكتب بيروت (د.ت) ، ج٢، ٤٢؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٢٢–١٢٨ ؛ حمدي عبد المنعم حسين التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عهد المرابطين ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، ١٩٩٧م، ص١٢٣ .

(٤٦) الأمير إبراهيم بن تاشفين بن علي بن يوسف ولد عام ٥٢٥هـ/ ١١٣١م تولى بعد وفاة والده تاشفين بن على عام ٥٣٩هـ / ١١٤٤م، كان صغيرًا في السن ضعيفًا لم يتمكن من حكم المرابطين وبخاصة بعد أن قوية شوكة الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن علي ، ولعجزه انتفض الناس عليه وبايعوا عمه إسحق بن علي آملين في قدرته على التصدي للموحدين لكنه لم يتمكن وقتله الموحدون عام ٥٤٢هـ /١١٤٧م.انظر: السلاوي الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج٢، ص ٧٣.

(٤٧) ابن خلدون : العِبَر ، ج٦، ص ٣٠٧.

الأمة الأندلسية، وبخاصة العلماء منهم وكان هذا الفريق يرى أن المرابطين متغلبون أجانب غاصبون، يستظلون بفكرة الجهاد، ليبسطوا سلطانهم على الأمة الأندلسية.[٤٨] وهنا رأى ابن بَرَّجَان أن المناخ السياسي يحتم عليه التخطيط للوقوف في وجه السلطة المرابطية بقصد تغييرها لحماية البلدان الأندلسية من الممالك النصرانية الطامعة فيها باستبدالها بسلطة قوية.

وعلى النقيض تمامًا مما سبق كان المناخ السياسي الذي قامت فيه ثورة القاضي عياض ضد الموحدين مختلفًا إلى حد كبير، فالسلطة الموحدية كانت في تلك الفترة في أوج قوتها، وتغلبت على قوة المرابطين في أكثر من معركة واجتاحت البلاد وازدادت في قوتها يومًا بعد يوم، كما أن المذابح التي ارتكبتها كانت سيفًا على رقاب معارضيها، ومع هذا المناخ السائد لا يمكن إغفال موقفهم من العلماء وبخاصة المعارضين لفكرتهم الدينية القائمة على عصمة المهدي إمامهم، على النقيض من اعتقاد العلماء بفكرة الجهاد المرابطي، إذن العلماء وبخاصة الفقهاء منهم كانوا يرون أن الوقوف في وجه الموحدين ربما يصل للضرورة الشرعية؛ ليس لشيء إلا لأنهم متغلبون على المرابطين، ويدعون بعصمة المهدي، كما أنهم كانوا قد ارتكبوا المذابح وفرضوا هيمنتهم بالقوة، وهنا رأى القاضي عياض ضرورة الوقوف في وجههم.

ثالثًا: أحداث الثورة:

بعد توتر العلاقات بين السلطة المرابطية والمتصوفة في الأندلس على النحو سالف الذكر، بدأ كل طرف يفكر كيف يحقق هدفه بطريقته، فالدولة تراقب تحركات المتصوفة عن كثب، وتشدد في ملاحقتهم إذا اقتضى الأمر ذلك، والمتصوفة يفكرون في آلية التواصل بينهم بطريقة أو بأخرى دون أن ينكشف أمرهم، ويهدفون على المدى البعيد للثورة ضد السلطة بل والانقلاب عليها بعد ذلك.

ومن هنا يتضح لماذا اتخذت ثورة المتصوفة المعروفة بثورة المريدين مرحلة سرية وأخرى علنية. فالمرحلة الأولى كانت الدولة تعمل للتضييق عليهم قدر المستطاع والعمل على منع تواصلهم، وليس ثمة دليل على ذلك أقوى من طريقة اتصال المتصوف والزعيم ابن العريف بمريديه، ومن كثرتها خافت السلطة منها، فبدأت في التضييق عليها، حتى إن ابن العريف نفسه يشكو في إحدى رسائله لأحد مريديه بعد عام ٥٢٩هـ/ ١١٣٤ من عدم رده على رسالة سابقة له، قائلاً:"...بعدت أنباؤك عنه، فوحشته بك طويلة، ولم يدر كيف حالك وحال إخوانك فمسرته قليلة، ...لا يمنعك من المخاطبة إلا مانع ضرورة، واجعل من همك معنى كتابي السالف الذي لم يكن عليه جواب وكنت في عام تسعة وعشرين وسبعمائة، لم يصل

(٤٨) محمد عبدالله عنان: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، ص ٣٠٥؛.

إلينا في وجهة المشرق مخبور يأنس ولا مخبور بطيبة نفس..."[٤٩].ومن المحتمل أنه لم يتمكن من ذلك نظرًا لتضييق السلطة المرابطية على مراسلات ابن العريف مع مريدية خوفًا من إثارتهم القلاقل في الدولة.

ويتجلى دور عالمنا المتصوف ابن بَرَّجَان هنا في المرحلة السرية من حركة المريدين قبل خروج الثورة إلى النور، فكان التجهيز لها على قدم وساق، واقتصر العمل في هذه المرحلة على جمع المريدين وحثهم على ضرورة التغيير وأن الوضع لم يعد يحتمل، وبدأ كل من ابن بَرَّجَان وابن العريف في الاتصال بالمريدين في مرحلة سرية قبل أن ينكشف أمرهم.

وانقسم المؤرخون حول إمامة المريدين في هذه المرحلة من مراحل الثورة ، فالبعض يرى أن ابن العريف كان إمامهم وقائد ثورتهم في مرحلتها السرية، مدللين على ذلك بكثرة رسائله إلى أتباعه ومريديه في شتى بقاع الأندلس [٥٠].فالمؤرخ شمس الدين الذهبي(ت ٧٤٨هـ /١٣٤٧م) يشير إلى أن ابن العريف كان "... الإمام الزاهد..." [٥١] ، وفي موضعٍ آخر بـ"... الزاهد الكبير..."[٥٢]، وأنه كان قد كثر حساده فأوشوا به عند أمير المرابطين عليَ بن يوسف وخوفوه منه خشية أن يكون نموذجًا لابن تومرت بسبب "... اشتمال القلوب عليه، وانضواء الغرباء إليه..."[٥٣]، وهي إشارة صريحة إلى أن المريدين كانوا قد وثقوا في ابن العريف وانضووا تحت لوائه، أي إنه كان قائدهم وزعيمهم .

كذلك كان ابن الخطيب(ت٧٧٦هـ /١٣٧٤م) من أرباب هذا الرأي فأثناء تناوله لثورة المريدين يذكر أنهم "... استقر جل نحلتهم بالمرية، وكان بها رئيس هذا الشأن ورجالته والمشهور فيه الشيخ أبو العباس بن العريف..." [٥٤] كما ذكر العلاقة بين ابن العريف وابن بَرَّجَان بأنه "... نظيره في الخلة..."[٥٥].

ومن المؤرخين المحدثين الذين أيدوا هذا الرأي وكانت لديهم القناعة بأن ابن العريف كان قائد المريدين وإمامهم المؤرخ آسين بلاثيوس في دراسة له بعنوان " أبو العباس بن العريف وكتابه محاسن المجالس، وبعد دراسة مستفيضة إلى أن توصل أن ابن العريف كان قائد المريدين، وأن عليَ بن يوسف

---

(٤٩) أبو العباس بن العريف : مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة ، تحقيق عصمت دندش ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط١، ١٩٩٣م ، ص ١١٢ .

(٥٠) انظر إلى رسائل ابن العريف في كتابه : مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة ، من ص ١٨٣ وحتى ص ٢٠٩.

(٥١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٠، ص ١١١.

(٥٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج٢٠، ص ٧٣.

(٥٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٠، ص ١١٣.

(٥٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام ، تحقيق سيد كسري حسن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، د.ت ،ج٢، ص ٢٢٥.

(٥٥) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ،ج٢، ص ٢٢٥.

خاف من تزعمه ثورة تطيح بحكمه ويتولى ابن العريف زعيم المريدين حكم بلاد الأندلس بعد استيلاء الثوار على المرية [٥٦].

كما أن المؤرخ محمد عبد الله عنان يلقب ابن العريف بأنه قطب الصوفية في تلك الفترة وأنه إمامهم وقائدهم، الذي يرنو المريدون إلى التعرف عليه ومرافقته[٥٧]. ويرى المؤرخ بالنثيا أن من أهم آثار دعوة ابن العريف وريادته للمتصوفة في تلك الفترة اندلاع ثورتهم العلنية ضد السلطة المرابطية بعد ذلك بقيادة أبي القاسم أحمد بن الحسين بن قَسِيّ(ت٥٤٦هـ /١١٥١م) ، والغريب أنه لم يذكر ابن بَرَّجَان ودوره لا من قريب ولا من بعيد [٥٨].

أما الفريق الثاني صاحب الرأي المؤيد لقيادة ابن بَرَّجَان ثورة المريدين في هذه المرحلة، فمنهم المؤرخ ابن الآبار(ت ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) فشهادته تؤكد أنه الشيخ الإمام المستتر؛ ذلك أنه عندما سرد قصة استدعاء الأمير علي بن يوسف بن تاشفين رموزَ المتصوفة من الأندلس إلى العاصمة مراكش لمثولهم أمامه ومحاكمتهم ذكر أبا العباس بن العريف وأبا بكر الميورقي[٥٩](ت ٥٣٧هـ /١١٤٢م) وأبا الحكم بن بَرَّجَان، لكنه أشار إلى أفضلية ابن بَرَّجَان على سائر العلماء المتصوفة "... وكانوا نمطًا واحدًا في الانتحال والإنصاف بصلاحية الحال ولأبي الحكم الشفوق عليهم حتى قيل فيه غزّالى الأندلس ..."[٦٠].

كما يؤكد الشعراني (ت ٩٧٣هـ/١٥٦٥م) أيضًا أن ابن بَرَّجَان كان إمام المريدين وشيخهم وأن عددًا كبيرًا من البلاد الأندلسية خطب باسمه، وهل تتم الخطبة باسمه إلا إذا كان هو شيخ المريدين

---

(٥٦) آسين بلاثيوس : أبو العباس بن العريف وكتابه محاسن المحاسن بحث مترجم ومنشور في كتاب الطاهر أحمد مكي : دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ، حرر بعضها وترجم البعض الآخر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٣، ١٩٨٧م، ص ٣٤٤-٣٤٨.

(٥٧) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، ص ٣٠٥-٣٠٧.

(٥٨) آنخل جونثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٤١٨.

(٥٩) محمد بن الحسن بن أحمد بن يحيى الأنصاري الخزرجي الميورقي الأصل ، سكن غرناطة، من العلماء المشهورين بها، عالمًا بالحديث وعلله، وأسماء رجاله، كان ظاهريّ المذهب ، يغلب عليه الزهد والفضل. كان من أعلام الصوفية بالأندلس ، فكان زعيمهم في غرناطة ، وكان الفقهاء قد أوشوا إلي على بن يوسف ضده مع أبي الحكم بن برجان زعيم المتصوفة في إشبيلية ، وأبي العباس بن العريف زعيمهم في المرية ، فطلبه على بن يوسف للحضور إلى العاصمة مراكش، فحوكم وسجن لفترة ثم أطلق سراحه ، بعد أن ضرب بالسّوط ، وعاد إلى الأندلس، ثم رحل إلى المشرق، فتوقف بالجزائر، وتوفي بها في ٥٣٧هـ /١١٤٢م . انظر: ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج٣، ص ١٤٤-١٤٥.

(٦٠) ابن الآبار : معجم أصحاب القاضي أبي علي الصدفي ، ص ١٩.

وإمامهم في تلك الفترة ؟ فيقول "... وقالوا للسلطان إن البلاد قد خطبت لابن بَرَّجَان في نحو مائة بلدة، وثلاثين..."[٦١]. وإن لم يؤكد مؤرخون آخرون ذلك، إلا أن ذلك دليل قوي على مكانته.

ومن المؤرخين المحدثين المؤيدين لهذا الرأي الأستاذة الدكتورة عصمت دندش التي انتهت إلى الإيمان والاقتناع بأن ابن العريف كان من تلامذة ابن بَرَّجَان وليس العكس، وأن الريادة كانت لابن بَرَّجَان في تلك المرحلة من مراحل ثورة المريدين [٦٢].

كما أيد هذا الرأي الدكتور عبد السلام غرميني الذي ينكر على بعض الباحثين قولهم بأن ابن العريف أستاذ ابن بَرَّجَان ويؤكد أن العكس هو الصحيح، وأن ابن بَرَّجَان شيخ ابن العريف. ومن المدرسة البَرَّجَانية انبثقت المدرسة العريفية. [٦٣] كما تؤيد المستشرقة ماريبيل فيرو Maribel Fierro أن الريادة والإمامة للمريدين كانت في تلك الفترة لابن بَرَّجَان ومن بعده لأبي القاسم أحمد بن الحسين بن قَسِيّ(ت٥٤٦هـ /١١٥١م) الذي أعلن الثورة على السلطة المرابطية بعد ذلك. [٦٤]

وعلى الرغم من أن كثرة الرسائل التي أرسلها ابن العريف للمريدين في شتى بقاع الأندلس، قد توحي أنه كان الزعيم الذي يراسل أتباعه ومريديه، الأمر الذي يمكن من خلاله الجزم بريادته وقيادته للمريدين،[٦٥] فإنه من خلال تلك الرسائل يمكن فرض عدة فروض يمكن التدليل من خلالها على أن العالم ابن بَرَّجَان كان قائد المرحلة السرية لحركة المريدين وثورتهم ضد المرابطين أو كان القائد المستتر.

وبالوقوف على طريقة مخاطبة ابن العريف لابن بَرَّجَان يمكن الاستدلال على أن ابن العريف أحد تلامذة ابن بَرَّجَان وليس العكس، وأن المكانة العليا بين المريدين والمتصوفة في بلاد الأندلس كانت لابن بَرَّجَان، وهو ما يؤكد أنه كان قائد المريدين في ثورتهم في مرحلتها السرية ومما ورد في أولى رسائل ابن العريف لابن بَرَّجَان التي أشار فيها إلى أنه يرغب في لقاء شيخ مؤدِّب ، وأن ابن العريف في حيرة

([٦١]) الشعراني: الطبقات الكبرى (لوافح الأنوار في طبقات الأخيار)، مكتبة محمد المليجي الكتبي وأخيه، مصر ، ١٣١٥هـ، مجلد ١، ص ١٥ .

([٦٢]) عصمت دندش : الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين (عصر الطوائف الثاني) ٥١٠-٥٤٦هـ /١١١٦-١١٥١م، تاريخ سياسي وحضارة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط١، ١٩٨٨م، ص ٥٥-٥٧. .

([٦٣]) عبد السلام غرميني : المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري ، دار الرشاد ، الدار البيضاء، ط١، ص ٢٠٠٠م، ص ١٢١-١٢٢.

(64)Maribel Fierro : The Polemic about the "karāmāt al-awliyā'" and the Development of Ṣūfism in al-Andalus (Fourth/Tenth-Fifth/Eleventh Centuries), Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. 55, No. 2 (1992), p.248-249..

([٦٥]) أعن هذه الرسائل انظر: بو العباس بن العريف : مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة ، ص ١٨٣-٢٠٩.

من أمره ورغبة جامحة في أن يلتقي بمن يُهذب نفسه على يديه، وأنه يبحث عن أستاذ له في هذا الطريق كما خاطبه بـ "... الفقيه الفاضل أبو الحكم كبيري..."[٦٦].

ثم تطورت العلاقة بعد ذلك بين التلميذ وأستاذه وازدادت رغبة ابن العريف في التقرب من ابن بَرَّجَان أكثر، ويظهر ذلك في رسالته الثانية التي لقبه صراحة فيها ب "... الشيخ الفاضل الإمام أبي الحكم .." كما طلب منه فيها الدعاء له بالتوبة الصادقة [٦٧]، ورسمت رسالته الثالثة شكل العلاقة بأن ابن العريف يصف أستاذه بأحسن الصفات، ويظهر أمامه كل الطاعة، وأنه مصدره في تلقي تعاليم الصوفية فيصفه بـ"... الفقيه الإمام أبي الحكم شيخي وكبيري... من المقتبس منه، المتطلع إلى ما لديه عبد الله الضعيف ..."[٦٨] . فهو إذن الشيخ الإمام ، وهو شيخه وكبيره، وهو الفقيه الفاضل، وهذه عبارات وألفاظ واضحة تدلل على علو مكانة ابن بَرَّجَان ورفعتها عند المريدين بصفة عامة وابن العريف بصفة خاصة .

كما أن ابن العريف لم يرد في رسائله إلى كل المريدين دعاء لمن راسلهم إلا لشيخه وإمامه وكبيره ابن بَرَّجَان، وهو ما يحمل في طياته دلالات واضحة على مكانة ابن بَرَّجَان عند ابن العريف وعند كل المريدين حتى إنهم كانوا يدعون له "... اللهم صل حقيقة وجود الشيخ إمامي وكبيري ... واجعله لمعالم طهارات النفوس زمامًا، ولأعلام الهدايات إمامًا ...."[٦٩]. كما أنه الوحيد الذي طلب منه أن يدعو له بالتوبة الصادقة، والدعاء له بعد الموت "... فأرغب ألا أخلو من بال الشيخ ودعائه في توبة صادقة ..." [٧٠]. "... وأنت يا إمامي بحرمة الشيب اذكرني إذا رقدت عند من له رقدت ..." .[٧١]

وفي إحدى رسائله لأحد أتباعه يقول له: "... ورد كتاب العالم الصادق أبي فلان، قدس الله روحه بوصاياه الصادقة وهداياه الفائقة فيا له من أخ في الله عم بأصناف تلاوين العلوم ، فهو طاووس علمائهم وخص بأنواع غوامض محاسن الفهوم ، فهو ناموس فهمائمهم صلوات الله وسلامه على كل من أباح لنا الكتاب والسنة أن يتقرب إليه..." [٧٢]

ومن المؤكد أن المقصود بالفقرة السابقة هو أبو الحكم بن بَرَّجَان ، فقد كتب أبا فلان في نص الرسالة؛ وربما كان ذلك مخافة أن ينكشف اسمه للسلطة المرابطية وكلمة فلان لم تكن ناقصة في نص

---

(٦٦) أبو العباس بن العريف : مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة ، ص ١٠٨ .

(٦٧) أبو العباس بن العريف : مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة ، ص ١٠٩ .

(٦٨) أبو العباس بن العريف : مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة ، ص ١٠٩ .

(٦٩) أبو العباس بن العريف : مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة ، ص ١٠٩ .

(٧٠) أبو العباس بن العريف : مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة ، ص ١٠٩ .

(٧١) أبو العباس بن العريف : مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة ، ص ١١٠ .

(٧٢) أبو العباس بن العريف : مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة ، ص ١٨٥.

الرسالة واجتهد أحد بوضعها، وإن كانت في أصل نص الرسالة، كما أن المواصفات التي وصف بها هذا العالم لا تنطبق في تلك الفترة سوى على شخص واحد فقط هو العالم ابن بَرَّجَان ، فبشهادة العلماء أنه كان ينهج نهج التأويل والغموض في كتبه وتفسيره لآيات الله، ولا يصل إلى مقصوده من كلامه إلا من فهم شخصه وكلامه [٧٣].

كما خاطب ابن العريف ابن بَرَّجَان متمنيًا أن تصله رسائله فيقوم بتنفيذ ما فيها كما وردت، دون أن يركن برهة إلى نفسه فيفكر في الأمر، وكان يحمل هم وصول رسائل ابن بَرَّجَان إليه "... كان من همي أن يصل كتاب الشيخ واحدي نظرًا، ومتقدمي تسليمًا ومعتبرًا، بما يتحرك له حامل براهين السمع مني حركة تحول بين النفس وهواها، وتورثها الحياء من مولاها ..." [٧٤]. ولم ترد في أي من رسائله إلى مريديه ما يفيد بانتظار الدعاء والمودة والمحبة إلا لابن بَرَّجَان فقط لما له من مكانة مرموقة عنده، فهو الإمام الذي يفتخر بمحبته، كما يفتخر بأن الشيخ الإمام كتب إليه، ودعا له "...فوصل من ذلك دعاؤه وكتابه وخطه وإلامه بالمحبة والمودة لي..."[٧٥] وكذلك أظهر ابن العريف أمله "... وإني كنت آمل إشارة من إشاراته علمية أو عملية..."[٧٦].

خلاصة القول، إن الفكر الصوفي جمع بين ابن العريف وابن بَرَّجَان، مع وجود اختلاف طفيف بين الشخصيتين فابن العريف كان مع تصوفه عالمًا في القراءات والفقه، وابن بَرَّجَان كان مع تصوفه ملمًا بعلم الكلام وبارعًا فيه، فابن العريف فقيه متصوف، وابن بَرَّجَان صوفي متكلم[٧٧].

ويميل الباحث إلى افتراض طرحه أحد المؤرخين المحدثين مفاده أن كلًا من ابن العريف وابن بَرَّجَان قد دخل الممارسات الصوفية على حدة، وفي وقت متقارب نسبيًا، ثم تنبه كل منهما إلى الآخر فربطا الصلات وتعاونا على النصيحة المتبادلة، كما يفترض أن ابن العريف اتخذ ابن بَرَّجَان شيخًا في طريق التصوف، وأضحى من تلامذته ومريديه [٧٨]، ولذلك وجب القول إن ابن بَرَّجَان– وليس ابن العريف– هو زعيم المريدين وإمام حركتهم في مرحلتها السرية، والتي اقتضت مراسلة المريدين وجمعهم تمهيدًا لإعلان الثورة ضد المرابطين بعد ذلك، وهي المرحلة العلنية من ثورة المريدين التي انطلقت بعد وفاة ابن بَرَّجَان بثلاث سنوات فقط في عام ٥٣٩هـ /١١٤٤م بزعامة أحد مريديه– ابن قَسِيّ(ت٥٤٦هـ /١١٥١م) – بعد ذلك.

---

(٧٣) ابن الزبير : صلة الصلة ،ج٤، ص ٣٢.

(٧٤) أبو العباس بن العريف : مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة ، ص ١٠٩.

(٧٥) أبو العباس بن العريف : مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة ، ص ١٠٩.

(٧٦) أبو العباس بن العريف : مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة ، ص ١٠٩.

(٧٧) عبد السلام غرميني : المدارس الصوفية المغربية والأندلسية ، ص ١٢٠.؛

Maribel Fierro : The Polemic about the "karāmāt al-awliyā,p.250.

(٧٨) عبد السلام غرميني : المدارس الصوفية المغربية والأندلسية ، ص ١٢٠.

أما عن أحداث ثورة القاضي عياض ضد الدولة الموحدية فكانت في مرحلتها الأولى بتأخير بيعة القاضي عياض للموحدين، ثم إعلان البيعة بعد ذلك [٧٩] مما يُعد تمهيدًا للوقوف في وجه السلطة، ويتضح من رواية ابن خلدون أنه عندما توجه عبد المؤمن بن علي قائد الموحدين بجيشه صوب مدينة سبتة في عام ٥٣٧هـ / ١١٤٢م كانت قد امتنعت عليه[٨٠]،مع حصاره لها، فتركها واتجه إلى غمارة[٨١]. ويذكر صراحةً أن القاضي عياض كان صاحب الدور الأكبر في امتناعها وتأخير البيعة للموحدين "...وتولى كبر دفاعه عنها القاضي عياض..." [٨٢] ويبرر ابن خلدون ذلك بقوله"... كان كبيرها يومئذ بدينه وأبوته ومنصبه..."[٨٣]. وظل أهل سبتة ممتنعين عن البيعة للموحدين، وعلى بيعتهم للمرابطين حتى عام ٥٤٠هـ /١١٤٥م[٨٤]، فما الذي دفع القاضي عياض لتأخير البيعة للموحدين ؟ وما الذي دفعه بعد ذلك لبيعتهم؟ والأرجح أنه تأخر في بيعتهم في وقت كان فيه غير مقتنع بهذه البيعة، ومؤمنًا إيمانًا قويًا بعدم شرعية سلطتهم، لكونهم متغلبين على السلطة الشرعية التي في رقبته بيعة لها.

ومن وجهة النظر المنطقية فإن ما قام به القاضي عياض بإعلان بيعته للموحدين عام ٥٤٠هـ/١١٤٥م رد فعل طبيعي في ظل ما قامت به قوات الموحدين عند دخولها باقي المدن وما وصل للقاضي عياض وأهل سبتة من مذابح الموحدين، علاوة على وفاة الأمير تاشفين بن علي عام ٥٣٩هـ /١١٤٤م، وأن شوكة عبد المؤمن قد قويت بعد استيلائه على العديد من المدن المغربية، بالإضافة إلى قوة جيشه، فخاف القاضي عياض على أهل سبتة من أن يصيبهم مثل ما أصاب أهل المدن الأخرى، الذين ذبحهم الموحدون عندما حاولوا مقاومتهم، ورأى أن من المصلحة أن يدخل هو وأهل سبتة في طاعة الموحدين، حتى تستقر الأمور، ويفكر فيما يمكن عمله بعد ذلك. [٨٥] كما أن المصادر التاريخية تسجل موقفًا آخر للقاضي عياض وهو زيارته لقائد الموحدين عبد المؤمن بن علي في مدينة سلا[٨٦]، وكان

---

(٧٩) ابن فرحون : الديباج المذهب، ج٢، ص ٤٧ .

(٨٠) ابن خلدون : العِبَر ، ج٦، ص ٣٠٧.

(٨١) ابن عذاري:البيان المغرب،ج٤، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣م، ص ١٨٧-١٨٨؛ ابن خلدون : العِبَر ، ج٦، ص ٣٠٧.

(٨٢) ابن خلدون : العِبَر ، ج٦، ص ٣٠٧.

(٨٣) ابن خلدون : العِبَر ، ج٦، ص ٣٠٧.

(٨٤) محمد بن عياض: التعريف بالقاضي عياض ص ١٢؛ ابن خلدون : العِبَر ، ج٦، ص ٣٠٧.

(٨٥) محمد بن عياض: التعريف بالقاضي عياض ص ١٢؛ ابن فرحون : الديباج المذهب، ج٢، ص ٤٧.

(٨٦) مدينة سلا : تقع على ساحل المحيط الأطلسى. يرجع بنائها إلى عام ١٥٠٠ ق. م . وتسميتها سلا يرجع إلى الاسم الذى أطلقه عليها الرومان سلا – كولونيا . فتحها المسلمون عام ٦٢هـ/٦٨٢م. انظر: الحميرى: الروض المعطار، ص ٥١٩؛ حمدى عبد المنعم محمد حسين : مدينة سلا فى العصر الإسلامى ،دراسة فى التاريخ السياسى والحضارى- الإسكندرية، ١٩٩٣م، ص ص٣-٤، ص ٥٣-٥٦.

لقاءً اتصف بالود وليس الندية، فأكرم عبد المؤمن نزل القاضي عياض وأكرمه إكرامًا تامًا وكان حريصًا على دوام الصلة بينهما بعد ذلك، وانصرف القاضي عياض في أحسن حال، وأقره عبد المؤمن بن علي قاضيًا للمدينة كما هو، وصرف أمور البلدة إليه.(٨٧) ويذكر ابن فرحون أن القاضي عياض بادر بالدخول في طاعة الموحدين منذ الوهلة الأولى بعد أن تغلبوا على بلاد المغرب (٨٨) ولم يذكر أنه تأخر في بيعته لهم ولو لوقت قصير، لكنه يذيل ذلك بلقاء أميرهم (عبد المؤمن) بمدينة سلا "...فأجزل صلته وأوجب بره...".(٨٩).

على أية حال رغم الخلاف الكبير بين الفكر الموحدي الذي يحمله عبد المؤمن بن علي وموقفه من الفقهاء في تلك الفترة، وموقف القاضي عياض من فكرهم أيضًا وكرهه لرغبة الموحدين القضاء على المرابطين، فقد حرص كل من الطرفين على استغلال اللقاء، فمن جانبه استغل عبد المؤمن بن علي اللقاء في طمأنة القاضي عياض، لما كان يعلم من مكانته بين العلماء المغاربة، وحصل منه على بيعته لما لها من أهمية في ذلك الوقت، كما ساعده القاضي في تهدئة أهل سبتة إلى حد ما لقبول سلطان الموحدين ولو لفترة، كما أن القاضي عياض استغل اللقاء في حقن دماء أهل سبتة، علاوة على الحفاظ على منصبه قاضيًا للمدينة، وهو بذلك ضمن الحفاظ على المدينة من الناحية السياسية وأيضًا الدينية .

والمدقق في سير الأحداث التاريخية يجد أن ما حدث كان منطقيًا أيضًا هذه المرة، فإن لم يتدخل القاضي عياض في مثل هذه الأحداث فمن يتدخل؟ ويكفي لتبرير القيام بهذا الدور ما ذكره المؤرخ ابن خلدون من أن القاضي عياض كان في تلك الفترة قاضي المدينة وأحد أهم المسئولين عنها فهو "... رئيسها يومئذ بدينه وأبوته ومنصبه..." (٩٠).

أما المرحلة الثانية من ثورة القاضي عياض فكانت في خلع طاعة الموحدين والمواجهة المسلحة، فبعد أن دخلت مدينة سبتة في طاعة الموحدين على النحو سالف الذكر؛ استقرت الأحوال لفترة لكنها ليست طويلة، ففي عام ٥٤٢هـ /١١٤٧م تجددت القلاقل والفتن وعمّت بلاد المغرب، وتمرد على سلطان الموحدين أحد القادة ويدعى محمد بن هود الماسي (ت ٥٤٢هـ /١١٤٧م)، وبايعه الناس في أغلب المدن المغربية ولم يبق بعدها للموحدين إلا مدينتا مراكش وفاس، وكانت مدينة سبتة كغيرها من المدن التي سعت بقوة لخلع سلطان الموحدين وهنا دخلت مدينة سبتة في خضم الأحداث مرة أخرى، ولكن هذه المرة ليست كالمرة الأولى ففي المرة الأولى كانت قد قاومت الموحدين في دخولها والخضوع لهم، ومرت بسلام

---

(٨٧) محمد بن عياض: التعريف بالقاضي عياض ص ١٢؛ ابن فرحون : الديباج المذهب، ج٢، ص ٤٧؛ المقري : أزهار الرياض ، ج٣، ص ١١؛ السلاوي الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج٢، ص ٧٦.
Maribel Fierro : The Polemic about the "karāmāt al-awliyā,p.250

(٨٨) ابن فرحون : الديباج المذهب، ج٢، ص ٤٧ .

(٨٩) ابن فرحون : الديباج المذهب، ج٢، ص ٤٧ .

(٩٠) ابن خلدون : العِبَر ، ج٦، ص ٣٠٧.

بفضل جهد القاضي عياض نفسه، أما هذه المرة فهناك والٍ موحدي بالمدينة يمثل عين السلطة ومعه حامية عسكرية لحماية سلطان الموحدين بها، ويصف ابن أبي زرع المشهد بقوله"... قام أهل سبتة على الموحدين بعد أن بايعوهم ومكنوهم من المدينة، وقتلوا من بها من الموحدين وعمالهم وأحرقوهم بالنار..."[٩١]. كما يضيف ابن خلدون أن أهل سبتة بعد إعلانهم الثورة "... أخرجوا يوسف بن مخلوف التينملل وقتلوه ومن كان معه من الموحّدين..." أي إنه ذكر اسم الوالي القتيل صراحة.[٩٢] وأقام أحد الباحثين المحدثين دراسة أثرية على العملة التي ضربت أثناء ثورة سبتة في عام ٥٤٢هـ /١١٤٧م، وخلص إلى إن دار الضرب بسبتة قامت بسك الدنانير المرابطية بأمر من القاضي عياض، وإنها ذات الدنانير التي كانت تضرب تحت حكم المرابطين.[٩٣] والسؤال المهم هنا: ما دور القاضي عياض في هذه الثورة أكان داعمًا ومؤيدًا ؟ أم كان مخططًا ومدبرًا؟ أم صمت أمام ما يحدث ليرى النتيجة بعد ذلك ؟

إن ثمة إجماعًا بين المؤرخين على أن دور القاضي عياض تمثل في التدبير والتخطيط للثورة، فابن أبي زرع يذكرها صراحة "...وكان قيامهم برأي قاضيهم عياض..."[٩٤] كما أن ابن خلدون وإن لم يذكر تحريض القاضي عياض لأهل سبتة على الثورة صراحة فإنه أكمل سير الأحداث بالنسبة للثورة وذكر أن بطل باقي الأحداث هو القاضي عياض الذي بحث عن بديل للموحدين يبايعه هو وأهل سبتة[٩٥]، فوجد القاضي عياض ضالته في أحد أمراء المرابطين ويدعى يحيى بن علي بن غانية المسوقي(ت٥٤٣هـ /١١٤٨م) وكان في بر العدوة الأندلسية ووالي الجزيرة الخضراء، فلم يتردد في الركوب إليه، ومبايعته عنه وعن أهل سبتة، مما يؤكد أنه زعيم الثورة وقائدها، كما طلب منه أن يرسل معه واليًا من قبله على مدينة سبتة، فأرسل معه واليًا يدعى يحيى بن أبي بكر الصحراوي فدخل سبتة واليًا عليها من قبل ابن غانية نازعًا سلطة الموحدين ، فقام بأمرها .[٩٦]

وهكذا من وجهة نظر الثوار بزعامة القاضي عياض حققت الثورة أهدافها وعلى رأسها خلع بيعتهم للموحدين، وعودة البيعة مرة أخرى للسلطة التى لطالما أحبوها، وهي السلطة المرابطية . والرأي الوحيد الذي خالف الرواية سالفة الذكر كان رأي محمد بن القاضي عياض الذي دافع عن والده كثيرًا ونفي عنه تهمة التحريض على الثورة ضد الموحدين، فيذكر أن الفتنة قامت وأعلن الناس الثورة من تلقاء أنفسهم

---

(٩١) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ١٩١.

(٩٢) ابن خلدون : العِبَر ، ج٦، ص ٣٠٧.

(93) Hanna E. Kassis:Qāḍī ʿIyāḍ's Rebellion against the Almohads in Sabtah (A. H. 542-543/A. D. 1147-1148) New Numismatic Evidence, Journal of the American Oriental Society , Jul. - Sep., 1983, Vol. 103, No. 3 (Jul. - Sep., 1983),pp.506-512.

(٩٤) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ١٩١.

(٩٥) ابن خلدون : العِبَر ، ج٦، ص ٣٠٧.

(٩٦) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ١٩١ ؛ ابن خلدون : العِبَر ، ج٦، ص ٣٠٧.

كغيرهم من أهالي المغرب، وكان ذلك "... والله يعلم أن ذلك كان غير رضى منه ، كراهة في الفتنة الدنيوية والأخروية ، وبقي يدير أمره ، ويسوس أهله ، دون تعاط إلى الإمرة في قول أول فعل، إلى أن دخل الصحراوي البلد ...زائرًا ومدافعًا ليحيى بن غانية..." .[٩٧]

وكان من الطبيعي دفاع الولد عن والده، ولكن السؤال: لماذا تجاهل رواية ذهاب القاضي عياض بنفسه للقاء ابن غانية بالعدوة الأندلسية وطلبه منه إرسال والٍ لمدينة سبتة ؟ كذلك لماذا لم يتعرض محمد بن القاضي عياض في حديثه لدور والده في تهدئة الأمور، إن كانت الثورة قد اندلعت دون تحريض منه عليها ؟ وهل شخصية القاضي عياض هي تلك الشخصية التي تدير أمورها، ولا تتدخل في مثل هذه الأحداث رغم الإجماع على أنه كان سبب تأخير بيعة أهل سبتة للموحدين ومقاومتهم في البيعة الأولى لهم ولولا قوتهم لما بايعهم ؟ وهل جاء الصحرواي والي ابن غانية من تلقاء نفسه، ولماذا ذكر محمد بن القاضي عياض كلمة زائرًا هل كان الصحرواي زائرًا فعلًا؟

كل التساؤلات السابقة تُقوي القناعة الباحث في أن القاضي عياض كان رمز الثورة في مدينة سبتة، وهو المدبر والمخطط لها، منتفضًا ضد السلطة الموحدية، لإيمانه بأنها غير شرعية، وأن حكم المغرب يجب عودته للمرابطين المجاهدين، لكن هل ستقف السلطة الموحدية مكتوفة الأيدي أمام هذه الثورة والتي انتهت على النحو سالف الذكر ؟ هذا ما ستجيب عنه الصفحات التالية .

خلاصة القول يمكن المقارنة بين دور كل من ابن بَرَّجَان إمام المريدين والقاضي عياض زعيم السبتيين برصد دور كل منهما في الثورة، فدور ابن بَرَّجَان يختلف عن دور القاضي عياض اختلافًا كبيرًا، فثورته لم تكن قد ظهرت إلى النور بعد ولم يشهد مرحلتها العلنية، وإنما كان دوره ينصب فى التجهيز لها، وغرس بذورها لتخرج إلى النور يومًا، وهو دور لا يمكن التقليل منه، فالثورة فكرة، والرغبة في التغيير في حد ذاتها ثورة . أما القاضي عياض فقد خرجت فكرته الثورية إلى النور على مرحلتين الأولى بامتناعه عن البيعة أول مرة ، والثانية بخروجه على البيعة وإعلان الثورة ومبايعة المرابطين مرة أخرى والرغبة الجامحة في نزع سلطانهم عن سبتة، وحل محل واليهم والٍ آخر.

رابعًا : موقف السلطة ونهاية الحركة وأهم نتائجها :

لم تقف السلطة المرابطية مكتوفة الأيدي أمام كثرة الوشايات من فقهاء المالكية ضد أبي الحكم ابن بَرَّجَان ، وإنما سارعت في التصدي لانتشار ما يمكن أن ينقلب ثورة على السلطة في وقت غير بعيد، بطريقة ممنهجة، قادها فقهاء الدولة للقضاء على أي فكرة من وجهة نظرهم تعارض أفكارهم المالكية أو يمكن أن تتحول إلى معارضة السلطة السياسية مستقبلًا بعد أن بدأ التيار الصوفي في الانتشار في ربوع البلاد الأندلسية، وكانت أولى الإشارات إلى مصير ابن بَرَّجَان تلك التي أوردها ابن الزيات(ت

(٩٧) محمد بن عياض: التعريف بالقاضي عياض ص ١٢.

٦١٧هـ/١٢٢٠م) في كتابه التشوف إلى رجال التصوف قائلًا "... لما أُشخص أبو الحكم ابن بَرَّجَان من قرطبة إلى حاضرة مراكش، سئل عن مسائل عيبت عليه، فأخرجها على ما تحتمله من التأويل. فانفصل عما ألزمه من النقد، وقال أبو الحكم: "والله لا عشت ولا عاش الذي أشخصني بعد موتي، يعني السلطان، فمات أبو الحكم...".[٩٨]

وحسب الرواية سالفة الذكر تم تجهيز قاعة محاكمة ابن بَرَّجَان بعد استدعائه إلى العاصمة المرابطية مراكش، فقد حضر القضاة وهم فقهاء المالكية، ملمين بأدلة الادعاء التي تؤكد من وجهة نظرهم أنه زنديق يجب قتله، جُمعت هذه الأدلة من آرائه وفكره في مؤلفاته، وفي حضور رئيس السلطة التنفيذية الأمير عليَ بن يوسف، ودارت المحاكمة بصورة علنية، وتم عرض أدلة الاتهام دليلًا دليلًا بطرحه على ابن بَرَّجَان، وقد أتيحت له الفرصة كاملة للدفاع عن نفسه ، لكن ذلك لم يكن أمرًا مجديًا، فإجابته لا يصل معناها لخلدهم، ولا يدركها عقلهم، فيشهد ابن الزيات أنه"... أخرجها على ما تحتمله من التأويل، فانفصل عما ألزمه من النقد...[٩٩] ، لكن أضحت إجاباته غير مقنعة من وجهة نظرهم ، وهنا ثبتت عليه تهمتهم التي ألصقوها به وهي تهمة الزندقة، فأصدرت هيئة المحكمة من فقهاء المالكية حكمها بأن ابن بَرَّجَان زنديق من الزنادقة وعقوبته القتل، وتشير المصادر وكتب التراجم إلى أنه مرض بعد المحاكمة في ظروف غامضة وتوفي بعدها بقليل في ٥٣٦هـ / ١١٤١م.[١٠٠] ولا يستبعد الذهبي أنه قد قتل بدس السم له.[١٠١]

ولم تنته عملية عقاب ابن بَرَّجَان حتى بعد موته؛ لما كان لوشاية الفقهاء من أثر سيء في نفس الأمير، فحسب أقدم الروايات وهي رواية ابن الزيات [١٠٢] والذي نقلت منه كتب التاريخ والتراجم [١٠٣] أنه أمر أن "... يطرح على المزبلة، ولا يصلى عليه، .... فدخل على القاضي أبي الحسن علي بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حرزهم (ت ٥٥٩هـ / ١١٦٣م) رجل أسود كان يخدمه ويحضر مجلسه، فأخبر أبا الحسن بما أمر به السلطان في شأن أبي الحكم ، فقال له أبو الحسن إن كنت تبيع نفسك من الله فافعل ما أقول لك ، فقال له :مرني بما شئت أفعله فقال له تنادي في أسواق مراكش وطرقها يقول لكم

([٩٨]) ابن الزيات التادلي : التشوف إلى رجال التصوف ، ص ١٧٠.

([٩٩]) ابن الزيات التادلي : التشوف إلى رجال التصوف ، ص ١٧٠.

([١٠٠]) ابن الزيات التادلي : التشوف إلى رجال التصوف ، ص ١٧٠. ؛ ابن الآبار : معجم ، ص ١٣٩؛ ابن حجر العسقلاني : لسان الميزان ، تحقيق دائرة المعرف النظامية – الهند ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧١م، ج٤، ص ١٣-١٤.

([١٠١]) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢٠، ص ١١١.

([١٠٢]) ابن الزيات التادلي : التشوف إلى رجال التصوف ، ص ١٧٠.

([١٠٣]) ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان، ج٤، ص ١٤؛ السلاوي الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج٢، ص ٧٦.

ابن حرزهم احضروا جنازة الشيخ الفاضل الفقيه الزاهد أبي الحكم بن بَرَّجَان ، ومن قدر على حضورها ولم يحضر فعليه لعنة الله ففعل ما أمره به ..."[١٠٤] ولكن ما يثير الدهشة أن ابن الزيات يكمل روايته بأن الأمير عليَ بن يوسف قال: "... من عرف فضله ولم يحضر جنازته فعليه لعنة الله... "[١٠٥]. ومن المحتمل أن ذلك كان تهكمًا على ابن بَرَّجَان ، ذلك أنه لم يرد في المصادر التاريخية ما يفيد بحضور الأمير عليَ بن يوسف الجنازة ، أو أنه ندم على ما فعله معه، بينما يذكر ابن بشكوال أنه ندم على ما فعله مع ابن العريف. [١٠٦]

ونتوقف عند نهاية ابن بَرَّجَان، فالقضية هنا ليست قضية شخص من المتصوفة اعتبروه رمزًا لهم وأحد قادتهم، فكثر مريدوه، وإنما تحولت القضية هنا إلى رغبة السلطة المرابطية في كبح كل فكر قد يهدد أمنها مستقبلًا؛ استجابة منها لنداء الفقهاء المالكية، الذين كانوا قد سبقوا ذلك بفتواهم بإحراق كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، فقام الحاكم نفسه –على بن يوسف بن تاشفين– بتنفيذ طلبهم، فكان لذلك مردود كبير في تنامي التيار الصوفي الذي عارض هذه الواقعة بشدة وندد بها.

يدلل على ذلك أن عددًا من رموز المتصوفة لقي المصير نفسه الذي لقيه ابن بَرَّجَان من التنديد بالفكر والمعتقد، والمحاكمة والتعذيب وربما القتل، فالاستدعاء للرموز الثلاثة ابن بَرَّجَان وابن العريف وأبي بكر الميورقي كان في وقت واحد وحضروا من الأندلس على مركب واحد .[١٠٧] ويؤكد ابن بشكوال(ت ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢م) أن الأمير علي بن يوسف ندم على ما فعله مع ابن العريف ، وأنه رجل من أصحاب الكرامات ، ولم تكن نهايته تليق به[١٠٨]. فلماذا يندم علي بن يوسف إن لم يكن كان قد تخلص منه بالقتل؟ كما أن المؤرخ شمس الدين الذهبي لا يستبعد أن عليَ بن يوسف بن تاشفين قد قتله بدس السم له[١٠٩].

كما أن ابن الخطيب في ترجمته لأبي بكر الميورقي(ت ٥٣٧هـ /١١٤٢م) زعيم المتصوفة في غرناطة، يذكر أن السلطة المرابطية استوقفته لمحاكمته في مراكش مع ابن العريف وابن بَرَّجَان وأنه "... حوكم وسجن لفترة ثم أطلق سراحه ، بعد أن ضرب بالسّوط، وعاد إلى الأندلس، ثم رحل إلى المشرق، فتوقف بالجزائر، وتوفي بها في ٥٣٧هـ /١١٤٢م..." [١١٠].

---

(١٠٤) ابن الزيات التادلي : التشوف إلى رجال التصوف ، ص ١٧٠.

(١٠٥) ابن الزيات التادلي : التشوف إلى رجال التصوف ، ص ١٧٠.

(١٠٦) ابن بشكوال : الصلة ، ص ٨٣.

(١٠٧) ابن الآبار : معجم ، ص ١٩.

(١٠٨) ابن بشكوال : الصلة ، ص ٨٣.

(١٠٩) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢٠، ص ١١١.

(١١٠) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج٣، ص ١٤٥.

إذن القضية هنا لم تكن تخص ابن بَرَّجَان وحده، وإنما كانت بالقضاء على تيار متنامٍ يزداد خطره على السلطة يومًا بعد يوم . والسؤال هنا :هل كانت السلطة المرابطية محقة فيما قامت به، بعد تحول التيار الصوفي المتنامي إلى تيار سياسي ثائر على السلطة المرابطية بعد ذلك في ثورة هي الأقوي في تلك الفترة وهي ثورة المريدين التي اندلعت بعد ثلاث سنوات فقط من محاكمة ابن بَرَّجَان ورفاقه على النحو سالف الذكر ؟

وللإجابة عن هذا التساؤل الخاص بخطر تيار صوفي في بلاد الأندلس، يجب العبور إلى بلاد المغرب لدراسة الموقف كاملًا، فالمدقق للأحداث في تلك الفترة يجد أنه مع تنامي التيار الصوفي وتحذير الفقهاء المالكية من انتشاره وأفكاره، ظهرت دعوة أخرى يجب عدم تجاهل تأثيرها في سير الأحداث على هذا النحو، فالموحدي ابن تومرت كانت دعوته قد بدأت تؤتي ثمارها بزيادة أتباعها حتى بعد وفاته عام ٥٢٤هـ /١١٣٠م، وتولي عبد المؤمن بن علي راية الموحدين، ودخول مدن كثيرة تحت لوائه، وهنا يمكن القول بأن عليَ بن يوسف وجد نفسه بين تحذير الفقهاء من أن تكون دعوة المتصوفة نموذجًا آخرَ لدعوة الموحدين مع الفارق الجغرافي فقط كونها على أرض بلاد الأندلس والموحدين في بلاد المغرب، فهل ستسمح السلطة المرابطية بتكرار سيناريو الموحدين مع المريدين في الأندلس؟ مع الأخذ في الاعتبار أن الدعوة الموحدية كانت قد اتخذت من طابع المقاومة المسلحة نهجًا واضحًا للقضاء على المرابطين وبدأت الحرب سجالًا بين الطرفين ، فهل يمكن هنا أن نفترض أن عليَ بن يوسف أراد القضاء على رموز المتصوفة للتفرغ لدعوة الموحدين أو على الأقل ضمان هدوء بلاد الأندلس في تلك الفترة وعدم خروجها عن سلطتهم ؟

ومما خوَّف علي بن يوسف أن بعض المتصوفة نهجوا نهجًا مغايرًا في التعبير عن رفضهم للسلطة، فوقعت حوادث اغتيال أهمها اغتيال قاضي الجماعة في قرطبة ابن الحاج أبي عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم بن لب التجيبي القرطبي المالكي وذلك عام ٥٢٩هـ / ١١٣٤م في حضرة الأمير تاشفين بن علي بن يوسف أمير الأندلس في تلك الفترة، مما زاد الأمر تعقيدًا، [١١١] وأصبحت الفتنة على الأبواب، فبدأ فقهاء المرية في إنكار مذهب زعيمها المتصوف ابن العريف، وفقهاء غرناطة في إنكار مذهب أبي بكر الميورقي، كما بدأ فقهاء إشبيلية في هذا النهج ضد أبي الحكم ابن بَرَّجَان، فكانت النهاية الحتمية بالمحاكمة على النحو سالف الذكر، ثم الوفاة بعد ذلك.

علاوة على ذلك زاد فقهاء الأندلس في تخويفهم لعلي بن يوسف من المريدين بأن ابن بَرَّجَان كانت قد دعت له البلاد وخطبت باسمه، بل حددوا عدد تلك البلاد حسب رواية الشعراني بـ"... مائة بلدة،

([١١١]) ابن عذاري: البيان المغرب ، ج٤، ص ٩٣؛ ابن الآبار : معجم ، ص ١١٤؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج١٩، ص ٦١٤.

وثلاثين..."[١١٢]. وهو وإن كان شيئًا مبالغًا فيه، وغير ملموس على أرض الواقع إلا أن ذلك خوَّف الأمير علي بن يوسف من هذه الدعوة، فجاءت وشاية الفقهاء المالكية بالنتيجة المرجوة منها بعد أن أقنعوا الأمير علي بن يوسف. وكانت الاستجابة السريعة من علي بن يوسف للفقهاء بالتخلص من زعماء المريدين، ولم يدقق في الأمر أكان وشاية منهم أم أن الخوف منهم كان أمرًا واقعيًا؟ فالمؤرخ ابن الآبار يؤكد أن الأمر برمته كان وشاية من الفقهاء قد طالت ابن بَرَّجَان وابن العريف وأبا بكر الميورقي في الوقت نفسه.[١١٣] كما أن ابن الزبير يدحض عن ابن بَرَّجَان تهمة الزندقة، فيؤكد أنه كان ملتزمًا تمامًا بالكتاب والسنة، متبعًا نهج السلف والعلماء المسلمين في هذا الصدد، مبتعدًا عن نهج الباطنيين[١١٤]. ويؤكد ابن حجر ذلك بقوله إن ابن بَرَّجَان "... سُعي عليه سعاية باطلة عند علي بن يوسف بن تاشفين.." [١١٥].

خلاصة القول، كان استدعاء علي بن يوسف لابن بَرَّجَان بالحضور إلى مراكش لمحاكمته وشاية من فقهاء المالكية بسبب الآراء السلبية لفقهاء المالكية حول الصوفية وكثرة تحريضهم، ومع التوتر في بلاد المغرب بخروج الموحدين وبداية النزال المسلح مع المرابطين، كان لا بد للأمير علي بن يوسف من وقفة، خشية تفاقم الأمر في فترة انتشرت فيها الفتنة وكانت دولة المرابطين في أضعف حالاتها، ومما زاد الأمر اضطرابًا وإرباكًا للمشهد أن شوكة الموحدين بدأت في القوة مما خوَّف علي بن يوسف من تمرد ابن بَرَّجَان والمريدين فيعجل ذلك بزوال الدولة، وهنا استغل فقهاء المالكية الموقف فبثوا سمومهم ضد المتصوفة فاضطر علي بن يوسف لاستدعائهم لمحاكمتهم .

أما عن موقف السلطة الموحدية من ثورة القاضي عياض فلم تكن دولة بحجم دولة الموحدين التي عانت كثيرًا وخاضت حروبًا ضارية في رحلة قيامها لتترك المدن المغربية مضطرمة بنار الثورة دون أن تكبح جماحها ولو كان ذلك باستخدام القوة المفرطة، وهو ما نهجه زعيمهم وقائدهم عبد المؤمن بن علي، حتى عاد الهدوء لأغلب المدن المغربية، وهنا بدأ يفكر في شن حرب ضروس على سبتة، لأن أمر ثورة سبتة لم يتوقف عند سبتة فقط، فوفقًا لما ذكره المؤرخون كان الصحراوي والي سبتة عن المرابطي ابن غانية قد اتصل بالقبائل المغربية المعادية لسلطة الموحدين والمنتفضين عليهم، وبايعوه وقاتلوا الموحدين وهزموهم.[١١٦] ومن هنا كان على الموحدين التحرك بسرعة لكبح جماح ثورة سبتة بزعامة القاضي

([١١٢]) الشعراني: الطبقات الكبرى ،ج١، ص ١٥ .

([١١٣]) ابن الآبار : معجم ، ص ١٩.

([١١٤]) ابن الزبير : صلة الصلة ، ج٤، ص٣٣. .

([١١٥]) ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان، ج٤، ص ١٤.

([١١٦])ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ١٩١ ؛ ابن خلدون : العِبَر ، ج٦، ص ٣١١؛ السلاوي الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج٢، ص ٧٦.

عياض. وبالفعل تحرك عبد المؤمن بن علي بقواته في سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م وحاصر البلاد وحاربهم وفر أمامه الصحراوي حتى عادت سبتة مرة أخرى لسلطة الموحدين وتبرءوا من بيعتهم لابن غانية[١١٧].والمهم هنا ما مصير القاضي عياض ؟ وإن كان دوره في البداية التحريض على الثورة، فما دوره في نهايتها ؟ فيذكر محمد بن القاضي عياض رواية مفادها أن والده كان ممن عفا عنهم عبد المؤمن بن علي فقد سعى في استعطاف الموحدين "... والاعتذار عن الكائنة إلى أن عفوا عما كان وأخذوا بالصفح والغفران...". .[١١٨] ويؤكد المؤرخ ابن أبي زرع (ت ٧٤١هـ/١٣٤١م)هذه الرواية ويذكر اسم القاضي عياض صراحة عندما ذكر عودة أهل سبتة للبيعة وطلب العفو "... فعفا عنهم وعن القاضي عياض ..." [١١٩] أما المؤرخ ابن خلدون فذكر أن العفو كان عامًا عن الناس وعن الصحراوي ولم يذكر اسم القاضي عياض "... ووصلته المرعبة من مشيخة القبائل في يحيى الصحراوي فعفا عنه وصلحت أحوال المغرب وراجع أهل سبتة طاعتهم فتقبّل منهم..." [١٢٠].

على أية حال، وكما هو ثابت من رواية المؤرخين فقد حصل القاضي عياض على العفو من عبد المؤمن بن علي زعيم الموحدين في عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م، ولكن تجمع الروايات التاريخية أيضًا على أنه منعه من العودة إلى مدينة سبتة مرة أخرى وأمره بالإقامة في مراكش العاصمة.[١٢١] وهو ما يؤكد حتمًا أنه كان مَن خطط للثورة على الموحدين، وأنهم يعلمون ذلك جيدًا .

أما عن مصير القاضي عياض بعد ذلك؛ فثمة خلافٌ بين الروايات في سبب وفاته، فيؤكد ابنه محمد أنه توفي في عام ٥٤٤هـ / ١١٤٩ م في مراكش العاصمة مريضًا [١٢٢]. أما الذهبي فيذكر أنه توفي في عام ٥٤٤هـ / ١١٤٩م مقتولًا ضربًا بالرماح بعد أن أنكر عصمة المهدي بن تومرت[١٢٣].

وصمت عدد من المؤرخين وأصحاب كتب التراجم عن ذكر سبب الوفاة واكتفوا فقط بذكر مكان الوفاة مراكش[١٢٤]، ويزيد كل من ابن الآبار وابن خلكان بذكر المكان الذي دفن فيه"... ودفن بباب إيلان

([١١٧])محمد بن عياض: التعريف بالقاضي عياض ص ١٢؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ١٩١ ؛ ابن خلدون : العِبَر ، ج٦، ص ٣١١؛ السلاوي الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج٢، ص ٧٦.

([١١٨])محمد بن عياض: التعريف بالقاضي عياض ص ١٢.

([١١٩])ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ١٩١.

([١٢٠]) ابن خلدون : العِبَر ، ج٦، ص ٣١١.

([١٢١])محمد بن عياض: التعريف بالقاضي عياض ص ١٢-١٣؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ١٩١ ؛ السلاوي الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج٢، ص ٧٦.

([١٢٢])محمد بن عياض: التعريف بالقاضي عياض ص ١٣.

([١٢٣])الذهبي : سير أعمال النبلاء، ج١٥، ص ٥١.

([١٢٤])ابن بشكوال : الصلة ، ص ٤٣٠؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج٢، ص ٤٧؛ السلاوي الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج٢، ص ٧٦.

بالمدينة ..."[١٢٥]. والأرجح ما أجمعت عليه كتب التراجم في وفاة القاضي عياض بمراكش العاصمة[١٢٦]ومريضًا حسبما أورد ابنه محمد الذي عاصر هذه الأحداث[١٢٧]. فإذا كانت رواية الذهبي صحيحة، فلماذا أعرض ابنه عن ذكر وفاته على يد الموحدين رميًا بالرماح مع إن ذلك يسطر مجدًا جديدًا للقاضي عياض، ووقوفه في وجه السلطة الموحدية، لعدم اعترافه بعصمة زعيمهم المهدي بن تومرت ذلك الأمر العقائدي ؟ كما أن القاضي عياض لم يتعرف بعصمة المهدي بن تومرت منذ ظهور دعوته.

خلاصة القول بالمقارنة بين منهج الدولتين في القضاء على الثورة، يتبين أن منهج الدولة المرابطية في القضاء على ثورة المريدين جاءت على مرحلتين، الأولى بالمحاولة في قتل الفكرة في مهدها، وقد شرعت في قتلها منذ اللحظة الأولى، إذ حاربت انتشار فكرة الصوفية، وأحرقت الكتب بإيعاز ووشاية من فقهاء المالكية، فرصدت بأعينها كل تحركات المريدين وكل أتباع زعمائهم فضيقت عليهم، حتى إنها راقبت بشكل مباشر هذه الرسائل، وفي النهاية وبوشاية من الفقهاء المالكية تم توجيه تهمة الزندقة لزعماء المتصوفة وعلى رأسهم ابن العريف وابن بَرَّجَان وأبو بكر الميورقي، وانتهى الأمر بوفاتهم ، إلا أن الفكرة لم تمت وخرجت للنور بعد ثلاث سنوات عام ٥٣٩هـ /١١٤٤م بزعامة متصوف آخر قاد الثورة في مرحلتها العلنية وهو ابن قَسِيّ.

أما دولة الموحدين فلم تتردد منذ البداية في استخدام القوة المفرطة، فقتلت كل من وقف في وجهها حتى قبل قيامها، وبالنسبة لثورة القاضي عياض وأهل سبتة،حاصرت المدينة وأحكمت الحصار فبايعوهم حقنًا للدماء بعد أن التقى القاضي عياض بزعيمهم عبد المؤمن بن علي فتوقفت حالة الثورة مؤقتًا، ثم بعد العودة للثورة وخلع طاعتهم حاصروا المدينة ولكن هذه المرة استخدموا قوتهم ضد أهالي سبتة ففر الوالي المرابطي الصحراوي أمام قوتهم، وطلب الأهالي والقاضي عياض العفو العام عنهم فعفا عنهم عبد المؤمن.

ولكن لم تنته حياة القاضي عياض بنهاية ثورته كابن بَرَّجَان، حيث آثر عبد المؤمن بن علي أن يبعده عن المدينة فأمره بالإقامة في مراكش العاصمة تحت عينيه، وهو ما فعله من قبل علي بن يوسف بن تاشفين حينما استقدم ابن بَرَّجَان لمحاكمته في مراكش والرغبة في البقاء بها بعيدًا عن بلاد الأندلس.

([١٢٥])ابن الآبار : معجم ، ص ٢٩٦؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ، ج٣، ص ٤٨٥..

([١٢٦])ابن بشكوال : الصلة ، ص ٤٣٠؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج٢، ص ٤٧؛ السلاوي الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج٢، ص ٧٦.

([١٢٧]) محمد بن عياض: التعريف بالقاضي عياض ص ١٣.

الخاتمـــــة

توصل الباحث من خلال دراسته لموضوع هذه الدراسة لعدة نتائج منها :

- أثرت بيئة النشأة في تكوين الفكر الثوري عند العالمين ابن بَرَّجَان والقاضي عياض، فقد نشأ الأول قرب إشبيلية مترددًا عليها متلقيًا العلم بها، وقد كانت من أجل المدن الأندلسية في تلك الفترة وأعظمها، ومنارتها العلمية الشامخة، والتي اتسمت بوجود عدد كبيرٍ من العلماء أسهموا في التشكيل العلمي والفكري عند ابن بَرَّجَان فاعتنق الزهد والتصوف، وامتهن علم الكلام، وتعمق في الفكر، كما أن طبيعة البئية الأندلسية –المعروفة بحياة الترف الذي من وجهة نظرهم حاول المرابطون تغيير طبيعة حياتهم هذه، أو على الأقل التضييق عليهم– كان لها أثرها في نشأة فكرة الثورة والتغيير عند فئة كبيرة منهم، علاوة على أن طبيعة الأندلسيين تجعل خضوعهم لسلطة غير راضين عنها أمرًا بالنسبة لهم غير مقبول ومن هنا كانت البيئة الجغرافية والعلمية التي نشأ فيها ابن بَرَّجَان بالغة التأثير في تشكيل فكرة الثورة عنده.
- كذلك نشأ القاضي عياض في مدينة سبتة التي لا تقل في المكانة العلمية ووجود العلماء بها عن كل مدن المغرب الأخرى، إذ شهدت وجود عدد كبير من العلماء، وتشهد نشأة القاضي عياض وتشكيل فكره بذلك، فقد نبغ في علم الفقه حتى أضحى من أمهر العلماء في الغرب الإسلامي فيه، فأهله ذلك لتولي القضاء في مدن أندلسية ومغربية أهمها مسقط رأسه سبتة، وعليه كان يرى كغيره من العلماء أن البيعة للموحدين بيعة يشوبها عوار كونهم متغلبين على المرابطين المجاهدين، كما يرى أن الخروج عليهم واجب، كما أن هذه البيئة أهلته لمكانة بين الناس مكنته من قيادتهم للثورة ضد الموحدين.
- يرتبط بنشأة فكرة الثورة طبيعة قبول السلطة الحاكمة للفكر المغاير لها، فسلطة المرابطين ترى في التصوف والزهد خطرًا داهمًا لا بد من مقاومته والتصدي له بشتى الطرق، والموحدون يرون في فقهاء المغرب والأندلس المعادين لفكرتهم غير المؤمنين بعصمة المهدي مارقين خارجين عليهم بل كفارًا تجب محاربتهم وقتلهم، أي إن السلطة تحتاج إلى تبني قبول فكرة قبول الآخر أو حتى الحوار معه قبل أن تتصدى له.
- أدى الفقهاء الدور الأكبر في سير الأحداث، سواء بكونهم السبب في قيام الثورة أو حتى قيادة الثورة ذاتها ، ففي مفارقة غريبة كان فقهاء المالكية – بسبب قربهم من السلطة المرابطية– السبب في ظهور تيار معادٍ للسلطة بسبب موقفهم من بعض الأفكار مثل التصوف والزهد وفتواهم بإحراق الكتب لوأد تلك الأفكار، وعلى النقيض تمامًا رفض القاضي عياض –وهو فقيه – التقرب من السلطة الموحدية وإعلانه القبول بهم منذ البداية فابتعد عنهم سياسيًا وفكريًا، فلم يقبل بهم حكامًا سياسيين ولا حتى من الناحية الدينية بقبول أفكارهم الشاذة بضرورة الإيمان بعصمة المهدي أو غيرها من أفكارهم

مع إيمانه بعدم شرعيتهم، فالفقهاء في الدولة المرابطية وبخاصة المالكية منهم كانوا السبب في اندلاع الثورة بفتواهم وتصدى الفقيه القاضي عياض للسلطة الموحدية بصورة ثورية.

- ليس ثمة شك في أن ابن بَرَّجَان كان زعيم المريدين في المرحلة السرية للثورة، وقد خلصت الدراسة بالتحليل والتقصي إلى ذلك، وكان ابن العريف تلميذه عمودًا فقريًا لانتشار هذه الفكرة عن طريق رسائله لمريديه وأتباعه ومحبيه، ويمكن القول بأن ابن بَرَّجَان كان زعيمًا روحيًا لهذه الثورة، التي أكملها بعد ذلك ابن قسي في مرحلة علنية.
- كان القاضي عياض قائد ثورة أهل سبتة ضد السلطة الموحدية، وكان يتمنى زوال دولتهم في مهدها قبل أن تنتشر من الناحية الدينية والسياسية، ولكن كل فكرة ثورية تلزمها قوة تحميها وتسعى لنجاحها إذا فكرت السلطة القضاء عليها، فاستنجد بالمرابطين لتحقيق ذلك، لكن كان الأوان قد فات، فقد زالت دولتهم في بلاد المغرب، ووجودهم في تلك الفترة في بلاد الأندلس لا يعني بالضرورة قدرتهم على استعادة ملكهم مرة أخرى، لذلك فشلت ثورة القاضي عياض.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية :

ابن الآبار:(محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي ت ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م):

- الحلة السيراء ،تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢، ١٩٨٥م.
- تكملة الصلة ، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة،بيروت، لبنان،ط١، ١٩٩٥م.
- معجم أصحاب القاضي أبي علي الصدفي ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر،ط١، ٢٠٠٠م

أحمد بابا التُّنْبُكْتي (أحمد بابا الصنهاجي التُّنْبُكْتي (ت١٠٣٦ هـ / ١٦٢٧م: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، د.ت .

الأزموري: محمد بن عبد العظيم الأزموري (ت ق ٩هـ/ ١٥م): بهجة الناظرين وأنس الحاضرين في مناقب رجال أمغار الصالحين ، تحقيق زهير بن أحمد بن الهادي، مطبعة الرباط نت،٢٠٢٣م .

ابن بشكوال أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال (ت ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢م): الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، تحقيق السيد عزت العطار، مكتبة الخانجي ، القاهرة ،ط٢، ١٩٥٥م.

البيدق: (أبو بكر بن علي الصنهاجي ت٦٦٨هـ /١٢٦٩م) : أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين ، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط ١٩٧١.

ابن تومرت : (محمد بن تومرت ت ٥٢٤هـ / ١١٣٠م٠: أعز ما يطلب ، تحقيق عبد الغني أبو العزم ، مؤسسة الغني للنشر ،الرباط ، دار وليلي للطباعة ، مراكش ، ١٩٩٧م.

ابن حجر العسقلاني: (أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر ٠(ت ٨٥٢ هـ/١٤٤٨مـ : لسان الميزان ، تحقيق دائرة المعارف النظامية بالهند ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧١م

ابن حزم : (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م): رسائل ابن حزم الأندلسي ، تحقيق إحسان عباس ، مؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ،ط١، ١٩٨١م.

الحميرى : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحِميرى (ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م): الروض المعطار في خبر الأقطار ، مؤسسة ناصر للثقافة – بيروت – طبع على مطابع دار السراج ، ط٢، ١٩٨٠ م

ابن الخطيب (لسان الدين بن الخطيب ت ٧٧٦هـ /١٣٧٤م):

- معيار الاختيار فى ذكر المعاهذ والديار– ضمن مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق أحمد مختار العبادى، الإسكندرية،١٩٨٣.
- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام ، تحقيق سيد كسري حسن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، د.ت.

ابن خلدون : (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ت ٨٠٨هـ /١٤٠٥م): العِبَر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر ، بيروت، ط١، ١٩٨١م .

الذهبي: (شمس الدين الذهبي ت ٧٤٨هـ /١٣٤٧م): سير أعلام النبلاء تحقيق شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، ط٣، ١٩٨٥م

ابن الزبير: أبي جعفر أحمد بن ابراهيم بن الزبير (ت ٧٠٨هـ /١٣٠٨م) : صلة الصلة، وزارة الأوقاف والشون الاسلامية، المغرب ،١٩٩٣م.

ابن أبي زرع :(علي بن **أبي زرع** الفاسي (ت ٧٤١هـ/١٣٤١م): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس،دار المنصور للطباعة ، الرباط، ١٩٧٢،

الزركشى (بدر الدين الزركشي ت ٧٩٤هـ /١٣٩٢م): تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور ، المكتبة العتيقة ، تونس ، ١٩٦٦م،

ابن الزيات : (لأبي يعقوب بن يحي التادلي ت ٦١٧هـ / ١٢٢٠م): التشوف لرجال التصوف ، تحقيق أحمد التوفيق ، منشورات كلية الآداب ، الدار البيضاء ، ١٩٨٤،

السلاوي: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري (ت ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م) : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ، ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٧م.

السيوطي: (عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ت ٩١١هـ/١٥٠٥م): طبقات المفسرين العشرين ، تحقيق علي محمد عمر ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٣٩٦هـ.

الشعراني: (عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحنفي ت ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م): الطبقات الكبرى (لوافح الأنوار في طبقات الأخيار)، مكتبة محمد المليجي الكتبي وأخيه، مصر ، ١٣١٥هـ.

الضبي: (محمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، أبو جعفر الضبي (ت ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م): بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧م

ابن عذاري (أبو العباس أحمد بن عذاري ت منتصف ق ٧هـ/١٣م) البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب ، ج٤، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر، بيروت ، ١٩٧٣م.

ابن العربي: (أبو بكر القاضي ابن العربي ت ٥٤٣هـ/١١٤٨م):

- قانون التأويل ، تحقيق محمد السليماني ، دار القبلة للثقافة الإسلامية ، الرياض ، ط١، ١٩٨٦م.
- رسائل ابن العربي ، منشوره كملحق في كتاب عصمت دندش : دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا ٤٣٠-٥١٥هـ /١٠٣٨-١١٢١م ، مع نشر وتحقيق رسائل أبي بكر بن العربي ، دار الغرب الإسلامي، بيوت ، لبنان ، ١٩٨٨م.

ابن العريف: (أبو العباس بن العريف ت ٥٣٦هـ /١١٤١م): مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة ، تحقيق عصمت دندش ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط١، ١٩٩٣م .

ابن العماد الحنبلي: (عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (ت ١٠٨٩ هـ/ ١٦٧٨م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تحقيق محمود الأرناؤوط ، دار ابن كثير، بيروت ،ط١، ١٩٨٦م

القاضي عياض : (أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض السبتي ت ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩م): ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، ج،١تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، مطبعة فضالة – المحمدية، المغرب ، ١٩٦٥م ، ج٨ تحقيق سعيد أحمد أعراب ، ١٩٨٣ م .

ابن فرحون إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، برهان الدين اليعمري (ت ٧٩٩هـ/١٣٩٦م) : الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور ، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة. د.ت.

ابن القطان : (حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي ت ٦٢٨هـ /١٢٣٠م) نظم الجمان لترتيب ما سلف من اخبار الزمان ، تحقيق : محمود على مكي دار الغرب الاسلامي بيروت ط٢ ، ١٩٨٠.

القلقشندي: أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م : مآثر الاناقة في معالم الخلافة ، تحقيق : عبدالستار احمد فراج ، عالم الكتب بيروت (د.ت).

الكتبي: (ابن شاكر الكتبي ت ٦٧٤هـ /١٢٧٥م) : فوات الوفيات ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت، لبنان ،ط١، ١٩٧٤م.

مجهول : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق سهيل ذكار ، وعبد القادر زمامة ، دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء ، ط١، ١٩٧٩.

محمد بن عياض : (أبي عبد الله محمد بن عياض ت ٥٧٥هـ / ١١٧٩م): التعريف بالقاضي عياض ، تحقيق محمد بن شريفة ، منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية والثقافة ، المغرب ، ١٩٨٢م.

المراكشي: (عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي، محيي الدين (ت ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) :المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت،ط١ ٢٠٠٦م.

المقري:(شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى، أبو العباس المقري التلمساني ت ١٠٤١ هـ/ ١٦٣١م)

- أزهار الرياض في أخبار القاصي عياض ، تحقيق مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة، ١٩٣٩م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر ، بيروت ، لبنان، ١٩٧٧م.

ياقوت الحموى شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي(ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م): معجم البلدان ، دار صادر، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٥م .

ثانيًا: المراجع العربية والمعربة:

أحمد بن محمد فكير: من أعلام المدرسة الحديثة بالمغرب، بحوث الندوة العلمية الأولى ، الناشر مركز بن القطان للدراسات ، المغرب ، مج١، ٢٠١١م.

أسامة محمد ماجد عبد الله : المناسبات القرآنية عند ابن بَرَّجَان الأندلسي دراسة منهجية تطبيقية ، رسالة دكتوراه ، كلية العلوم الإسلامية العالمية ، ، عمان ، الأدرن ، ٢٠١٤م.

إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين إسماعيل الموليفين أسرى المُصنِّفين، المكتبة الإسلامية ، طهران ، ١٩٥٢م .

آسين بلاثيوس : أبو العباس بن العريف وكتابه محاسن المحاسن بحث مترجم ومنشور في كتاب الطاهر أحمد مكي : دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ، حرر بعضها وترجم البعض الآخر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٣، ١٩٨٧م.

آنخل جونثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٥م.

حسين مراد: القاضي عياض دراسة في النشأة والتكوين العلمي مجلة الدراسات الإفريقية ، معهد البحوث والدراسات الافريقية ، جامعة القاهرة ، العدد ٢٦، ٢٠٠٤م.

حمدي عبد المنعم حسين:

- مدينة سلا فى العصر الإسلامى ،دراسة فى التاريخ السياسى والحضارى– الإسكندرية، ١٩٩٣م.
- التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عهد المرابطين ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، ١٩٩٧م.

سلامة محمد سلمان الهرفي : الأحوال السياسية وأهم مظاهر التطور الحضاري لدولة المرابطين في عهد علي بن يوسُف بن تاشُفِين(٥٠٠–٥٣٧هـ) ، رسالة ماجستير منشورة ، جامعة أم القرى ، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، مكة المكرمة ، ١٩٨٢م.

عادل نويهض: معجم المفسرين، مؤسسة نويهض السكافية، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٨ م.

العباس بن إبراهيم (ت ١٩٥٩م): الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية بالرباط ، ط٢، ١٩٩٣م.

عبد السلام غرميني :

- معالم من فكر ابن بَرَّجَان، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض، المغرب، ع١٢، ١٩٩٣م.
- المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري ، دار الرشاد ، الدار البيضاء، ط١، ص ٢٠٠٠م.

عبد الله بن محمد علي بن حيدر: القاضي عياض وكتابه ترتيب المدارك، مجلة المؤرخ العربي، اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، ع١٥، ٢٠٠٧م، ص ٥٠٥–٥٠٧.

عصمت دندش : الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين (عصر الطوائف الثاني) ٥١٠–٥٤٦هـ /١١١٦–١١٥١م، تاريخ سياسي وحضارة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط١، ١٩٨٨م.

محمد الأمراني: ثورة المريدين، ابن قسي ملامح من حياته السياسية والصوفية ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة القاضي عياض، المغرب ، ع١٢ ، ١٩٩٣م.

محمد زنير : المحيط التاريخي لابن بَرَّجَان ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش ، جامعة القاضي عياض ، مراكش ، المغرب ، ع ١٢، ١٩٩٣م.

محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس العصر الثالث عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، مكتبة الخانجي ، القاهرة، ط٢، ١٩٩٠م.

محمد المنتصر الكتاني : الغزالي والمغرب ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، القاهرة ، ١٩٦٢م.

ثالثًا : المراجع الأجنبية :

Bellver, Jose:

- "'Al-Ghazali of al-Andalus': Ibn Barrajan, Mahdism, and the Emergence of Learned Sufism on the Iberian Peninsula." The Journal of the American Oriental Society, vol. 16, no. 4, Oct.-Dec. 2013.

Hanna E. Kassis:

- Qāḍī ʿIyāḍ's Rebellion against the Almohads in Sabtah (A. H. 542-543/A. D. 1147-1148) New Numismatic Evidence, Journal of the American Oriental Society , Jul. - Sep., 1983, Vol. 103, No. 3 (Jul. - Sep., 1983).

Hülya Küçük:

- Light upon Light in Andalusī Sufism: Abū l-Ḥakam Ibn Barrajān (d. 536/1141) and Muḥyī l- Dīn Ibn al-ʿArabī (d. 638/1240) as Developer of His Hermeneutics. Part 1: Ibn Barrajān's Life and Works, Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft , Vol. 163, No. 1 (2013).

Louis Massignon:

- Recueil de textes inédits concernant l'histoire de la mystique en pays d'Islam, Paris: Librai- rie orientaliste Paul Geunthner, 1929.

Maribel Fierro :

- Maribel Fierro : The Polemic about the "karāmāt al-awliyā'" and the Development of Ṣūfism in al-Andalus (Fourth/Tenth-Fifth/Eleventh Centuries), Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. 55, No. 2 (1992).
- Opposition to Sufism in al-Andalus", in Islamic Mysticism contested. Thirteen Centuries of Controversies and Polemics, ed. F. de Jong y B. Radtke, Leiden: Brill, 1999.

Miguel Asín Palacios:

Tres estudios sobre pensamiento y mística hispanomusulmana, Madrid: Hipe- rión, 1992.